وزارة الثقافة والارشاد
مديرية الثقافة العامة

من مناهل الحياة

تأليف
الياس قنصل

سلسلة القصة والمسرحية ٣

وزارة الثقافة والارشاد
مديرية الثقافة العامة

من مناهل الحياة

تأليف

الياس قنصل

سلسلة القصة والمسرحية
٣

عتالان ، ومهندس ، وطبيب

منذ مدة ، كنت انتظر في احدى المحطات قدوم قريب لي في الداخل ، وكان القطار قد تأخر عن ميعاده نصف ساعة ، فرحت اذرع ارض المحطة جيئة وذهابا ، واماطل الوقت بالنظر الى الاعلانات المعلقة على الجدران . ولاح لي في ملف الممشى تجمهر عدد غفير من الناس ، فتحولت الى حيث كانوا ، واخذ يتصل بسمعي – وانا ادنو – سباب متبادل . فشكرت ربي في قرارة نفسي ، على انه ارسل لي الهوة اتشغل بها الى ان يجيء القطار . وشققت طريقي بين المتجمهرين بمنكبي ، كما يشق السباح الماهر صفحة الماء ، واقتربت كأني داخل الى مسرح تمثيل – وبيدي تذكرتي – الى احد المقاعد الاولى .

واشرفت على الساحة التي فيها الخصام ، وبطلاه اثنان من العتالين ، وكانت الشتائم تتطاير في الفضاء ، كأنها شظايا قنابل القتها طيـارة حربية ، ولو طلب مني حينئذ ان احكم للمتفوق منهما لعييت ، فقد كان أحدهما يسدد الى رفيقه شتيمة هي منتهى ما يصل اليه فن الغضب ، فأقول في سري « ما بعد هذا زيادة لمستزيد » ، ولا أكاد انتهي من قولي ، حتى يكون الثاني قد تكرم على الاول بشتيمة اعظم .

والحق ، اني لم اكن اعرف ، قبل ذلك ، ان لغة الانسان فيها هـذه المرونة ، بحيث يتسنى للمرء ان يركب من ثلاثين حرفا ، تقريبا ، الف عبارة وعبارة من الشتائم المختلفة ، المتساوية كلها في القذاعة والفحش .

وكنا – نحن المتفرجين – نؤلف حولهما حلقة ، وكان امامهما ميدان فسيح نوعا ما ، وفاتني ان اتأمل الحضور لأشهد ما يبدو على وجوههم من الخوالج ، ولا أشك في أن الحضور قد فاتهم كذلك ، اعادة النظر في ، اذ كنا منصرفين الى اتباع المنظر .

وخاف المتنازعان ـ على ما ظننت ـ ملل الحاضرين ، فشـــرعا في الفصل الثاني ، وهجم أحدهما ولكم خصمه على وجهه لكمة القته عـلى الارض ، غير أنه مالبث ان انتصب ، وقابل رفيقه ، وتوالت اللكمات تنتقل من مكان الى مكان ، فواحدة اصابت العين ، وثانية خلخلت الفـك ، وثالثة خدشت الخد ، ورابعة ٠٠ وخامسة ٠٠ الى ان سال الدم من انف أضعفهما ، فلطخ وجهه ويديه كما لطخ وجه اقواهما ويديه ، وانتشـر شعرهما وتمزقت ثيابهما ، واصبحا كأنهما وحشان مفترسان ، هم الواحد أن يقضي على الثاني ٠

والظاهر ان الدنيا لا تزال تحمل على أديمها فريقا من أولاد الحلال ، لا يروقهم أن يتمتع الناس بمثل هذه المحاضر مجانا ، والظاهر ان احـد هؤلاء الاولاد ، لما عاين على اشتداد الخصام بين العتالين ، اسرع فاخبر شرطيـا ٠

وجاء رجل الامن ، فأفسح له المتفرجون ـ على مضض ـ ممرا صغيرا ، الى ان ادرك ميدان العراك ٠

وكان الجريح قد فقد نشاطه ، فهوى على الارض ، وهم الجـارح بالانقضاض ، فبادره الشرطي ، وألقى القبض عليه بيد ورفع باليد الثانية صافورته ونفخ فيها طالبا من زملائه المساعدة ٠

ونبهني الصفير من غفلتي ، فما جئت الى المحطة لحضور ملاكمـة ، وانما جئت لاستقبال مسافر فتركت موضعي متحسـرا ، وتحـولت الى الرصيف الذي يقف على حفافه القطار ٠

واطلعت نسيبي على ما جرى ـ ونحن في الطريق الى الدار ـ فقال لي:

ـ وماذا تنتظر من عتالين أميين ؟ أيقنع الواحد خصمه بالحسنى ؟ ان عقل الجاهل يا صاح ، ذو مدى محدود ، فهو لا يرى ـ احيانا ـ الى أبعد من شبر واحد ، فلا عجب اذا اعتقد ان مشاكل الدنيا كلها يمكن حلها بالضرب واللكم ، اني اراهنك على ان بطلي الحادثة التي تذكرها لم يطالعا كتابا واحدا ، ان كانا يعرفان القراءة ، وان البيئة التي يعيشـان فيها ، من احط البيئات ، ان لم تكن احطها ٠ فلا يستول عليك الاسف ، ان دنيانا لا يعمرها العتالـون فحسب ، ان فيهـا المفكرين والادبـاء والفلاسفة ، فأن اردت ان تضع مثلا لها ، فلا تذهب الى المحطة ، بل الى المكاتب والمستوصفات والدوائر ، كلا ليست الانسانية في دركة الانحطاط التي تتصورها ، انها اعلى من ذلك بكثير !



ولم يفارقني خيال العراك طول النهار ، مع اجتهادي في ابعاده ، فقد كانت عيني تبصر الدم في كل مكان

وكانت ضجة المدينة تتحول في سمعي الى شتائم

وكنت اظن الناس ، وهم يتراكضون كعادتهم — مسرعين الى مشاهدة ذلك الخصام

وكنت اذا مررت بشرطي ، أكاد اقترب منه لأخبره ان في المحطة شجارا بين عتالين ، وان واجبه أن يسرع لتلافي الامر ٠



وعادت الى ذهني كلمات نسيبي ، وأغرتني بالبحث عما اذا كان مصيبا فيما اشار اليه ، ولم يكن ذلك بالصعب ، فتناولت احدى جرائد المساء ، وطالعت فيها خبر الحادث مفصلا ، وفيه ان الجريح نقل الى مستشفى قريب ، وان الجارح سيق الى دائرة الشرطة ٠

وطلبت من قيم القاعة في المستشفى أن يرخص لي بزيارة الجريح ، فلم يمانع ، فدخلت عليه ، فاذا ذقنه ورأسه واصابعه ملفوفة بالعصائب البيضاء ، اشبه ما يكون باحدى الموميات المصرية القديمة

وجلست بالقرب منه ، وحييته ، فالتفت الي مستغربا ، فاعلمته اني كنت في المحطة حين بدأت الملاكمة بينه وبين زميله ، واني اهتممت بالاستفسار عن حالته ، وما كاد يسمع عباراتي ، حتى انهالت الشتائم من فمه على خصمه ، ممزوجة بالوعيد ، فلطفت من حدته الى ان اطمأن ، ثم أخذ يحدثني عن حياته :

هو رب عائلة مؤلفة من زوجته ومن بناته الاربع ، يقيم الجميع في غرفة واحدة في دار عتيقة ، ويعمل نهاره في المحطة ، وتعمل رفيقة حياته في غسيل امتعة الجيران ، ليقوما بأود معيشتهما ، ويعيلا البنات

لم يدخل المدرسة لا صغيرا ولا كبيرا ، ولم تلقنه الحياة درسا من الدروس ، انه يعيش ، ويشتغل « ليسحب اللقمة »

اما الاخلاق ، فلا يدرى لها معنى ، ولا يهمه شيء من شيء

فادركت اذ ذاك ان نسيبي لم يخطىء فيما قاله

ثم سألت الجريح عن سبب الخصام ، فرجع من جديد الى السباب ، وبعد ان تعب منه قال لي :

— نادتني احدى المسافرات ، فاسرعت لحمل حقائبها ، وكان هو أقرب اليها مني ، فسبقني مع اني احق منه

ـ او ما كان الافضل لك وله أن تفضا المشكلة بالحسنى ؟ كم تقدر أنها اعطتـــه ؟

فاجابني :

ـ ريالا على أقل تعديل

فقلت :

ـ وكم تربح انت في اليوم ؟

فقال ، بعد تفكير قصير :

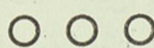
ـ خمسة ريالات تقريبـا

فقلت :

ـ طيب ، احسب معي : لا غنى لك عن البقاء في هـذا المستشفى ، شهرا لشفاء جراحك ، فأنت ، والحالة هذه ، ستفقد مائة وخمسين ريالا . ولا غنى لبقـــاء صاحبـــك في السجن شهرا أيضا ، يضيع فيه ما تضيع ، فلأجل ريال واحد تتحمل انت هذه الخسارة مصحوبة بالالم ؟ ومن يدري ؟ لعل وجهك رغم العلاج ، يظل مشوها ، ولعل صاحبك تكون له هذه السابقة في دائرة البوليس ، بمثابة باب للاجرام ، ينفتح امامه على مصراعيه ؟

فقاطعني ، وهو يشير الى الباب بيده غير المعصوبة :

ـ ومن طلب منك ان تتدخل في شؤون حياتي ؟ ان هذه امور لاتفهمها انت . ووالله لو لم أكن مقيدا بجراحي لحاسبتك على كلماتك حسابـا لا أرقام فيه ولا ريالات .



وخرجت من المستشفى ، واتجهت الى السجن القابع فيه العتـــال الثاني ، واستأذنت المدير في خطاب السجين .

وكان ارشادي له كارشادي لرفيقه

ولم يكن موقفه بعيدا عن موقف زميله

فقد انهال عليه بالسباب والوعيد

فسكنت خاطره ، وقص علي ـ تلبية لرغبتي ـ مراحل حياته ، ولم تكن تختلف عن حياة رفيقه فقرا وجهلا وانحطاطا ،

ولما سألته عن سبب الشجار اجابني :

ـ ان المسافرة نادت رفيقه ، ولكنه هو كان اقرب اليها ، فهو أجدر

بأن يحمل امتعتها
فبسطت له حينئذ صورة الحساب التي بسطتها للجريح ، فكـان جوابـه لي :
ـ والله لو لم أكن في السجن لتركتك الآن في نفس الحالة التـي تركت فيها خصمي ٠ ان الحسنى لا تفيد ، وهذه الطريقة التي تحاول ان تحل بها المشكل هي للاولاد والنساء ، فكيف يمكن ان نرضى بها نحن ـ نحن الرجال اصحاب الشوارب ؟
وخرجت من السجن ، وانا اعيد ما سمعته من نسيبي :
« ماذا تنتظر من عتالين امين ؟
« ان البيئة التي يعيشان فيها من احط البيئات »
« ان دنيانا لا يعمرها العتالون فحسب ، ان فيها المفكرين والادباء والفلاسفة »
« فان اردت ان تضع لها مثلا ، فلا تذهب الى المحطة ، بل الى المكاتب والمستوصفات والدوائر »
« كلا ، ليست الانسانية في دركة الانحطاط التي تتصورها ، انهـا اعلى من ذلك بكثير »



ومرت على هذا الحادث ايام ، نقلت تفاصيله رويدا رويدا الى زاويـة مهجورة من زوايا دماغي
وحلت محله حوادث جديدة
ولم يعد للانسانية ـ في تقدمها وانحطاطها ـ ذلك الميزان الدقيق الذي كنت احمله معي
ورضيت بان اكون قطرة في هـذا البحر الطامي ، قطرة لا تباهـي أخواتها بشيء
وقذف بي الزمن الى ادارة من ادارات الصحف اليومية
واصبح توجيه الناس ، او بعبارة اصح : التظاهر بتوجيه النـاس مهنـة لـي
ورد علي يوما خبر شائق يستحق ان يحتل الصفحة الاولى من الجريدة
ان المهندس فلانا طلب الطبيب فلانا الى المبارزة !
وفلان الاول هو رئيس حزب من الاحزاب المحافظة
وفلان الثاني هو كاتب حزب من الاحزاب غير المحافظة

فالمبارزة اذن بين حزب وحزب

ويزيد في أهمية المتبارزين ، انهما كانا قديما صديقين حميمين وجارين عزيزين ، وقفت بينهما السياسة ، فنسيا الصداقة ثباتا على الرأي وتعاديا صلابة في العقيدة . ان الرجل الذي يضحي بالوداد في سبيل المبدأ ، هو أرقى ما تصل اليه الرجولة

وعين الاول شاهديه

وفعل الثاني فعله

وتم الاتفاق بين الشهود الاربعة ، على ان الصلح غير ممكن اطلاقا ، فالخصام هو على رأي يتمسك به مئات الالوف من الناس ، ولا يجوز بحال من الاحوال ان يخيب الزعيم آمال المتحزبين له ، فضلا عن ان الخلاف بينهما امتد الى صفحات الجرائد ، فغدا خلافا جوهريا ، تقوم عليه حياة بلاد ، فكيف يفض بالحسنى ؟ واى حسنى بين مبدأ يسير الى الشرق ، وثان الى الغرب يسير ؟

كل خلاف لا أهمية له الا هذا

فليحى فلان المهندس فهو يعرض حياته للخطر في سبيل شيء سام

وليحى فلان الطبيب ، فهو لا يسأل عن الحياة تأييدا لعقيدته

وقرر الشهود الاربعة ، وهم كذلك من الشخصيات البارزة ، ان يكون المسدس سلاح المتبارزين

وجرت المبارزة

واطلق الطبيب رصاص مسدسه ، فاخطأ المرمى

واطلق المهندس رصاص مسدسه ، فاصاب صدر الهدف ، وسقط الطبيب ، والدم يتدفق منه

وانتهت المبارزة

فحمل الطبيب ذووه الى داره ، وهم يعالجون جرحه

ورافق المهندس ذووه الى داره ، وهم يهنئونه على فوزه المبين

وعادت الجرائد فنشرت نتيجة المبارزة ، مرفوقة بالتفاصيل الوافية ، مصحوبة بصورة عربة الاسعاف التي اصعدوا اليها الجريح ، وبصورة السيارة الفخمة التي استقلها الجارح

واحببت انا ان تكون للجريدة التى احررها ، ميزة على سواها ، فقلت لنفسي :

– ما لي لا اقابل الطبيب اولا والمهندس ثانيا ، فأخذ منهما تصريحات هامة ؟

وتوجهت الى المصح الذي كان فيه الطبيب ، فمنعوني من الدخول ، اذ كانوا يجرون له عملية جراحية دقيقة ، ليستخرجوا من صدره الرصاصة

فتركته ، واسرعت الى دار المهندس ، فقرعت الجرس وقابلني الخادم ، فاطلعته على قصدي ، وطلبت منه ان يستأذن لي فاقترب مني ، ففاحت من فمه رائحة الخمر الكريهة ، وقال لي وهو يضحك ضحكة سكران :

– ان المهندس قد دعاه اصدقاؤه الى نزهة خارج المدينة ، احتفاء بفوزه على خصمه بالمبارزة ، واباح لنا نحن ان نحتفي بفوزه ، فقدم لنا ثلاث قناني من خمره المعتقة لنشربها ، فتعال ، وعيد معنا

فاعتذرت ، فأمسكني من تلابيبي وقال :

– لابد لك من الدخول

وشدني الى الردهة واقفل الباب بالمفتاح ووضعه في جيبه ، وانا اتميز اشمئزازا من رائحته

ونادى زوجته وامرها ان تعد له كأسا آخر من الخمر ، ففعلت وهي تترنح مثله من السكر :

فتعوذت بالله ، وجلست كما طلب

ورأيت ان اصرف الوقت بسؤاله الى ان يتاح لي الهرب فقلت :

– أأنت جديد في خدمة المهندس ؟

فاجابني :

– كنت خادما لوالده قبله ، وانا الذي رباه تقريبا ، ولا ازال اذكر حين كان يلعب برفقة الطبيب الذي جرحه بالمبارزة

فسألته :

– كيف ؟

فقال :

– او تجهل ان والده كان جارا لوالد الطبيب ، وان الصداقة جمعت الولدين الى أن بلغا سن الشباب ، فاختلفا على قطعة من الارض كانت تفصل دار الاول عن دار الثاني ؟ وما برحت العداوة تتفاقم الى ان انتهت الآن بالبراز فقلبت شفتي ، وقلت :

– لاشك انك تمزح . أليس الخلاف بينهما على طريقة سياسية ؟

فلم يجبني على سؤالي ، بل وقف وقال لي :

ـ تعـال

ـ ورافقته الى غرفة ، فتح من مكتب فيها درجا صغيرا ، وقدم لـي صورة الطبيب وهو فتى ، والى جانبه المهندس وهو مثله في العمر ٠ ثـم اخرج صورة ثانية للدارين ، ودلني باصبعه على قطعة الارض التي جرى الخلاف عليها وسألته عن قيمة الارض ، فاجابني :

ـ ان ثمنها ضئيل جدا ، وهو لا يزيد عن الالف ريال ، ولكن المهم ليس ثمنهـا ٠

وسمعنا طرقا على الباب ، فركض الى فتحه ، وكان الطارق بيـاع الخضراوات ، فأمسك الخادم به من تلابيبه ، وقال له :

ـ تعال ، اشرب معي احتفاء بفوزنا الباهر

ففرحت لحلول الخضـار محلي ، وخرجت من الـدار فلم يحفل بي الخـادم ٠



وعادت حادثة المحطة الى ذهني بدقائقها ، فقلت لنفسي :

ـ لقد اخطأ نسيبي : ان الانسان هو الانسان عتالا كان او مهندسا ان المظاهر هي التي تتباين اما الجوهر فلا ٠ ان الخلاف بين اثنين مـن العتالين هو ريال ، والخلاف بن حاملي الشهادات هو ألف ريال ٠ ولو حسبت القيمة بالنسبة الى رأس المال ، لما وجدت من تفاوت ٠

ان الخلاف بين عتالين يتفرج عليه ثلاثون نسمة ، اما بين اصحاب المهن الرفيعة فالفرجة تعم ثلاثة آلاف

ان العتال يشتم رفيقه بكلمات مكشوفة
اما المهندس فيسب خصمه بعبارات رمزية
ان العتال يحل مشاكله مع زملائه بالضرب واللكم
اما حاملو الشهادات فيحلونها بالمسدسات

ومضيت اردد بعد صمت قصير :

ـ متى تدرك الانسانية ان الشر لا يجوز دفعه بالشر ، وان الحسنى هى المنهج الوحيد الذى يجب ان يسير عليـه البشر لحـل المشاكل ، والوصول الى الهدف الاسمى الذى ينشدون ؟

ـ متى يدرك الناس ، ذلك ـ المتعلم منهم والامي ، المثقف والجاهل ؟

ـ متى يكون للحق ، للحق وحده ، السلطان والسطوة ؟
ـ متى ؟ متـــى ؟

وسمعت نفسي تقول لي :

ـ قد يكون ذلك اليوم بعيدا ، ولكنه آت ، لا ريب فيه

سؤآل ؟

خرج من بيته تبدو آثار الوجوم على قسمات محياه ، وتوجه الى المكتب الذى يعمل فيه محدقا الى الارض ، كأنه لا يريد ان تصل نظراته بينه وبين الناس

واستطاع ، وهو ينقل خطواته الرتيبة في الشارع الذى ما زال يسلكه منذ خمسة أعوام ذهابا وايابا أن يستجمع أفكاره ، ويطوي الزمن ، فاذا حياته تبدو له سلسلة متشابكة الحلقات من المصاعب التي ذللها ، تجر وراءها الحرمان الذي اضطر الى احتماله

ها هو يرى نفسه صبيا ، يستخدمه احد اصحاب الحوانيت التجارية في مهام مضنكة ، فيتصبب العرق منه طيلة ساعات النهار ، ويعود الى دار والديه ، وقد انتشر الظلام ، ليتابع دروسه التي يتلقنها لنفسه بعد أن ترك المدرسة الى العمل ، مساعدة لأهله على ربح اللقمة ٠

وها هو يرى نفسه شابا محروما من مرح الشباب ، فقد اقعد المرض اباه ، وحل هو محله في الكدح لاخوته الصغار ، ولم يعد العمل الذى يتعاطاه – تنظيم الحساب في احد المحال التجارية – يقوم وحده باود المعاش ، فلا بد له من البحث عن غيره ٠ ويتيح له الحظ ان يشتغل اربع ساعات ، بعد الفراغ من المحاسبة ، في بيع التذاكر وراء شباك في دار للسينما

وها هو يرى نفسه ، وقد كاد يتخطى دور الشباب ، ولم يترك له اتصال عمله الاول بعمله الثاني فسحة من الوقت ليجد « بنت حلال » ترافقه في قطع طريق الحياة ، وتتعاون معه في العناية بابيه المقعد ، وامه التي اصابها نوع من الشلل وضاقت الدنيا امامه ، وهو سائر الى مكتبه

وتطلع ، بعين خياله ، الى المستقبل ، فلم يبصر فيه بصيصا من السعادة

ولم تحدثه نفسه باليأس ، وان كانت قد ضربت حوله سياجا من الضباب والقتام . فكأنه وحيد في هذه الدنيا التي يمرح فيها الناس . وما هؤلاء الناس ؟ الا يلتقون به ـ وهو في همومه ـ ويظلون ماضين الى شؤونهم ، دون أن يحفلوا به ؟ اليسوا هم السبب في هذا الشقاء الذي يعانيه ويعانيه أمثاله من البائسين الكادحين ؟

وشعر بموجة من الغضب تسري في دمائه على هؤلاء الناس ، وبنوع من الكراهية لهم ، والاشمئزاز من مآتيهم .

وتتابعت خطواته الرتيبة الى مكتبه

ورأى رجلا يعترض طريقه ، ويدنو منه . وتأمل فيه ، فاذا هو شيخ متهدم رث الثياب . واشار اليه الرجل بالوقوف ، فوقف ، واقترب منه ، وقال :

ـ من فضلك يا بني ، ارشدني الى دار البلدية ، فاني غريب هنا ، واريد ان اصل اليها قبل أن ينتهي الدوام فيها

فقال صاحبنا :

ـ اسلك هذا الشارع الى تلك البناية البيضاء ، ثم لف الى اليمين ، فتقابلك دار البلدية

وعاد الشيخ يقول ، وهو يهز رأسه :

ـ شكرا لك يا ابني

وواصل صاحبنا السير الى مكتبه ، وقد طرأ على افكاره تغيير ، وانبسطت قسمات وجهه واختفى العبوس الذى كان يبدو عليه

وكأن هذا السؤال البسيط الذي سمعه من الشيخ ، وعبارات الشكر التي ودعه بها اجترحت هذه الاعجوبة . كأن اعتراض ذلك الشيخ سيل خواطره ، قلب صفحة الحياة امامه من وجه الى وجه .

لا ... ان هؤلاء الناس ليسوا اعداءه . أن فيهم من يعاني الصعاب مثله ، غير أنه يحتملها بالصدر الرحيب والوجه البشوش . وما الحياة لولا هذه العقبات التي يجدها المرء في مراحل عمره ؟ اهو الوحيد الذى اضطر الى العمل صبيا ليعود اهله ؟ اهو الوحيد الذى قضى شبابه بعيدا عن مراتع اللهو ؟ اهو الوحيد الذي يقوم بأود نسباء له ؟

كلا ثم كلا ، ان الدنيا مليئة بهؤلاء الذين يضحون في سبيل غيرهم بما يضحون

ان الشيخ الذي سأله منذ دقائق عن دار البلدية في طور الهرم ، ومع

ذلك فان له مشكلة ـ ولا شك ـ في الدائرة ، وهو يأمل ان يصـل في وقت الدوام ليحلها او ليسعى في حلها

فلماذا يضع هو سياجا من الضباب والقتام حوله ، ويشرف عـلى هاوية القنوط ولا يزال في ربيع العمر وفي مقتبل الكفاح ؟

ان الحياة لفي الف خير ، واذا كان قد حرم نفسه حتى الآن البحث عن بنت حلال تشاطره المصائب ، فان الوقت لم يفت بعد ، وسيجد زوجة تفهم روحه ، وتتعاون معه على العناية بوالديه المريضين

وانفرجت اسارير وجهه عن مشروع ابتسامة راضية

وشعر بمعنى جديد للحياة

ووصل الى مكتبه ، فأكب على عمله سعيدا

عروس غضبا عنه

جاءني ، وقد ارتسمت على محيـاه سمات الكآبة والحزن ، وجلس ، وتنهد تنهدا عميقا ، وقال :

ـ اني تعيس يا صديقي ، اني في آخر درجات التعاسة

قلت :

ـ ما لك ؟

قـال :

ـ اسمع ، هذه مأساتي :

رأيتها في دار عائلة من اقربائي ، فسلمت عليها كما سلمت على جميع الحاضرين ، ولم اوجه اليها من الاحاديث الا بمقدار ما وجهت الى غـيرها من الذين ضمتهم تلك السهرة • ثم شاهدتها بعد اسبوع ، هي وامهـا في الشارع ، فتقدمت منهما ، والقيت عليهما التحية ، ودار بيننا مايدور عادة في مثل هذه الظروف من الكلام الرتيب العادي • وتلقت والدتـي بعد ايام دعوة من ام الفتاة لزيارتها ، فلبتها

وتوثقت العلاقات بين الاسرتين

وكانت الفتاة ترافق امها غالبا ، الى دارنا ، فـان كنت حاضـرا ، تحدثنا عن السينما ، ثم سردنا بعض النوادر المتداولة •

وكانت الفتاة على قسط من الجمال والثقافة والاناقة ، ولكنها لم تكن تثير في نفسي أي احساس خاص ، وان كنت ارى انها تتقرب الي وتتودد ، وتحاول ان تسترعي التفاتي وانتباهي •

وظلت الاواصر بيننا على هذا النسق الى ان التقيت بها في احد الايام وحدها في الشارع ، وكان يوما جميلا من ايام الربيع ، يحلو فيه المشي ، وهى الرياضة التي أؤثرها على سواها • وكأنها هي ادركت ما يجـول في

خاطري ، فقالت لي :

ـ اتريد ان ترافقني في نزهة ؟

فقبلت ، ورحنا نتمشى ، ونتحدث كالعادة عن الافلام والممثلين ·

وفجأة ، التفتت الي ، واوقفتني ، وسألت :

ـ ما هو شعورك نحوي ؟

قلت :

ـ شعور الاخ نحو اخته

فظهرت على وجهها امائر الغيظ ، وسكتت

وعبثا حاولت ان اصل ما انقطع من الحديث ، فقد ظلت ملازمة الصمت · ولم تكن نزهتنا قد انتهت ، فتوقفت في احد منعطفات الطريق ، وقالت :

ـ اعذرني ، اني مضطرة الى الرجوع

وودعتني بجفاف

فاستغربت تصرفها ، وهززت رأسي مستنكرا ، ومضيت لشاني

وعدت الى الدار في المساء ، فاذا والدتي تقول لي ان ام الفتاة قد سألت عني مرارا في الهاتف ، وطلبت ان اتصل بها حال مجيئي

وفعلت

فقالت لي الام :

ـ تعال فورا ، فاني بحاجة اليك

وذهبت ، فاستقبلتني الام ، واخذتني الى زاوية في الردهة ، وقالت لي:

ـ لقد حاولت البنت ان تنتحر ، اذ تناولت شفرة ، وقصت عرقا في معصمها ، وقد ادركتها قبل ان يشتد الخطر عليها ، فمنعتها من المضي في عملها الجنوني ، واسعفتها غصبا ، واستدعيت طبيبا ، فخاط لها جرحها

فقلت للام :

ـ ولماذا حاولت ان تنتحر ؟

اجابت :

ـ لقد صرحت لي بما جرى لها معك اثناء نزهة اليوم ، واخبرتني انها تحبك حبا جنونيا ، وانها ستعمد الى الانتحار من جديد ، اذا لم تستطع الزواج منك

فقلت :

ـ وماذا تريدين انت مني الآن ؟

اجابت :

ـ تضحية بسيطة : هي ان تتظاهر بانك تحبها ، وبان جوابك لها اليوم لم يكن صادرا من صميم قلبك ، وان تفعل ذلك الى ان تنتهي ازمتها العصبية ، ثم نتدبر الامر بعد ذلك

قالت :

ـ لن يكلفك هذا التظاهر شيئا ، غير انه يقي حياة ابنتي ، وسأظل شاكرة لك هذا المعروف طيلة حياتي ورأيت دمعتين تسترسلان من مآقيها ، فقلت لها :

ـ طيب ، سأفعل

ودخلت على الفتاة في غرفتها ، وهي مستلقية على سريرها ، وقلت لها ، وانا ابتسم :

ـ ماذا فعلت ؟

فتأملت فيَّ بلهفة ، ولم تجب ، فاردفت قائلا :

ـ اعذريني على ما بدر مني اليوم ، فقد كنت في حالة نفسية غير طيبة، وكان جوابي الجاف لك نتيجة هذه الحالة ثم تقدمت منها ، وامسكت بيدها ، وتابعت :

ـ اني احبك ، وانت تعرفين اني احبك ، فما هذا الجنون الذي ظهر منك ؟

وحاولت ان اضع في كلماتي لهجة العاشق الولهان ، واعتقد اني توفقت ، فقد انفرجت أسارير وجهها ، وطغت ابتسامة من الهناء عليه ، وضغطت على يدي بشدة

وجاءت امها ، فلم يكن سرورها بسعادة ابنتها أقل من سعادة الابنة بما تظاهرت به من غرام ..

ومرت الايام ، وانا أزور الابنة ، والقي على سمعها بكلمات الوجد والهيام

ولا اكتمك اني كنت اشعر ، بعد رجوعي الى البيت ، بخجل من نفسي لما أقوم به من كذب ونفاق ، وكان نفوري الداخلي منها يزداد يوما عن يوم، وأنا اجرب دائما أن اعالج نفسي لكي لاتنتبه الى حقيقة احساسي، وأخاف أن يبدر مني ما يفضح نفوري منها .

وذهبت الى دارها مرة ، وكانت غائبة ، ولم يكن في البيت الا أمها ، فقلت لها :

ــ لم اعد استطيع احتمال هذه التضحية اكثر مما احتملت

فقالت :

ــ لقد دبرت الامر ، ان لنا بعض الانسباء في قرية في الداخلية ، وقد كتبت اليهم ان يستدعوا ابنتي ، وان يستبقوها عندهم أطول مدة ممكنة ، لعلها تنسى

وسافرت الفتاة بعد اسبوع ، وكتبت الي في الاسبوعين الاولين رسالة كل يوم ، فلم ارد لها جوابا ، ثم اخذت رسائلها تخف ، فصارت رسالة في الاسبوع ، ثم وردت علي رسالة منها اخيرا تقول فيها « انني ما دمت لم اجاوب على مكاتبيها فقد رأت في ذلك دليلا على فتور حبي لها ، وان لها كرامة شخصية تحافظ عليها ، وهي لذلك قررت ان تقطع كل علاقة معي » وها قد مضى شهر كامل لم أستلم منها رسالة ، مما يدلني على ان الفتاة صادقة في عزمها

فقلت لصديقي :

ــ ولماذا قلت لي انك تعيس ، اليس هذا ما كنت تنتظره ؟

فأجاب :

ــ نعم ، هذا ما كنت انتظره سابقا ، اما الآن فقد تبدل شعوري نحوها ، وأصبحت احبها حبا اقرب ما يكون الى الجنون ، ولن تطيب لي الحياة الا اذا خطبتها وجعلتها شريكة حياتي

ثم تنهد تنهدا عميقا ..

الفُرسان الثلاثة

كنا ثلاثة ، اتفقت أمزجتنا ، وانسجمت آمالنا ، وتقاربت آراؤنا ، فضمتنا صداقة منيعة راسخة

واحدا : يعمل في شركة ضمان

وثانيا : صاحب محل سمانة حالفه التوفيق

وكاتب هذه الاسطر يرأس قسم الادب في مجلة منتشرة

وكنا نجتمع ، تقريبا ، كل ليلة ، في سهرة ممتعة ، نتجاذب اطراف الاحاديث من اجتماعية وسياسية وادبية وكانت اماكن السهرات تنتقل من بيت الاول الى الثاني فالثالث بالتتابع

وبلغ من شهرة المودة التي تظللنا ، ان اصبح كثيرون من الاصدقاء والانسباء يدعوننا « الفرسان الثلاثة » ، ويركبون الدعابات علينا

على ان شيئا واحدا لم ننسجم فيه .

كان من عادتي ان احرز كل ثلاثة اشهر ، من ادارة المجلة ، رخصة تدوم اسبوعا ، أترك فيها المدينة الى أحد المصايف ، استجماما ، وما اكاد اعرض الامر على رفيقي مدير شركة الضمان ، حتى يطلب من مجلس الادارة رخصة ينالها ليرافقني ، وما نكاد نعرض الامر على « الفارس الثالث » حتى يعتذر بانه لا يستطيع ، فالمحل يتطلب العناية الدائمة ، ولا يتسنى له تركه سبعة ايام متلاحقة ، فان قلنا له ان في زوجته وفي ابنهما وفي اخيه كفاية لينوبوا عنه بالاهتمام ، اجاب انه لا يشك في غيرة هؤلاء على المحل ، ولكنهم مع غيرتهم لا يمكنهم ان ينوبوا منابه .

فان الححنا ، اكد لنا ان غيابه اسبوعا قد يؤخر المحل تأخيرا

لا يعوض ، ويزيد على ذلك ان المحل كالفتاة العذراء اذا كبا مرة ، فهيهات ان يتاح له بعد كبوته رفع رأسه نجاحا .

وكنا نتركه ، ونتحول الى المصيف آسفين ، لغيابه عنا في المدة التى نقضيها فيه

وكنت اجد في عذره مبررا لبقائه في المدينة ، ويخالفني رفيقي ، فيؤكد لي ان اعذار صاحبنا فيها المبالغة ، فالمحل لا تصيبه اية خسارة اذا غاب عنه اسبوعا كل ثلاثة اشهر ، ويحاول ان يقدم لي البراهين على صواب ما يؤكده ، فلا اقتنع ، ونترك الموضوع الى غيره

ونعود الى المدينة ، فيعودالانسجام ، وترجع السهرات

ومر الزمن

وشاء القدر ان يعكر صفاء هذه المودة التي تجمعنا ، او بكلمة اصح : اراد ان يبتر هذه الصداقة

فمرض رفيقنا صاحب المحل ، مرضا فجائيا ، فدخل المستشفى ، واجريت له عملية سريعة لم يستفق منها وواريناه التراب بالدموع والحسرات .

وطلبت مني ادارة المجلة ان انتقل الى مدينة اخرى بعيدة عن العاصمة لأتولى الاشراف على مكتبها فيها ، ففعلت . ورجعت بعد مدة ، الى حيث كنت سابقا في مهمة ، وتحولت ، فورا ، بعد قضائها ، الى بيت رفيقي مدير شركة الضمان ، فكان لقاء مؤثرا ، واستعدنا ذكريات الايام الماضية ، ورأينا ان نقوم بزيارة الى دار رفيقنا المرحوم ، لتحية ارملته ، وابنه واخيه ، فاستقبلونا بالترحاب ، وبعد دورة من الاحاديث الرتيبة ، في مثل هذه الزيارات ، سألهم رفيقي عن المحل ، فقالت المرأة :

— لقد اضطررنا الى توسيعه ، بفضل اقبال الزبائن ، فاستأجرنا الدار الملاصقة ، وحولناها الى مستودع للبضائع ، وكم كنا نتمنى لو ان فقيدنا ظل حيا ليرى ان هذا المحل الذى كان يعتني به عناية فائقة قد تضاعف نجاحه وفوزه .



وقال لي رفيقي ، ونحن في الطريق :

— أرأيت ؟ كان المرحوم يمتنع عن مرافقتنا الى المصايف اسبوعا ، خوفا على المحل من التأخر ، وها قد مضى عليه اكثر من سنة ، وهو غائب

عنـــه ، والمحل يسير ، في غيـــابه ، في طريق من النجاح لم يعرفه عـلى عهــده ٠

فقـلت :

ـ صحيح ، ان المقابر مليئة بالذين كانوا يحسبون ان الانسانيـة لا تستطيع الاستغناء عنهم ٠٠

الشرابُ المسموم

قال صديقي :

اني اضع امامك الوقائع كما هي ، واترك لك ان تربط بين خطوطها .

(١)

في الثالث من أيار ١٩٥٣ اذاعت الشركات البرقية هذا الخبر الذي نشرته كثير من الصحف العالمية :

« تسمم عدد من الضباط اليهود بشراب كانوا يتناولونه في احد المطاعم في القدس . وقضى فريق منهم نحبه قبل ان تصل عربات الاسعاف التي نقلت البقية الى المستشفيات وهم في حالة خطرة . والتحقيقات جارية لمعرفة اسباب تفسخ الشراب الذي كانوا يتناولونه . »

(٢)

في أواسط تموز سنة ١٩٥٣ ــ وكنت لا أزال في عاصمة جمهورية اميركية جنوبية ــ دعاني رئيس احدى الجمعيات الخيرية العربية فيها ، وقال لي :

ــ اتصل بي عزمك على العودة الى الوطن ، واريد ان اعهد اليك بتأدية مهمة ، على شرط ان تكتم سرها ، اذا وجدت ان افشل يضر بالمصلحة العامة ،

ثم وقف واقفل باب الغرفة التي كنا فيها ، وعاد الى مكتبه ، وفتح درجا منتشلا منه مغلفا مغلقا ، وقال لي :

ــ اني ارغب منك في ان تسلم هذه الرسالة كما هي ، الى رجل في دمشق ، اسمه « نعيم الصفواني » وهو فلسطيني الاصل .

قلت :

ــ ما عنوانه ؟

فاجاب :

ــ لا ادري . وكل ما اعلمه انه يقيم في عاصمة سورية ، وقد نزح اليها من القدس مع النازحين ، يوم دخل اليهود تلك المدينة .

فقلت :

ــ لا بأس ، انه عنوان او شبه عنوان ، وسأبحث عنه الى ان اعثر عليه ، ولكن اسمح لي بسؤال :

ــ هل استطيع أن اعلم مضمون هذه الرسالة ؟ اني لا اريد ان يكون في حملها أية مسؤولية علي . ولماذا لا ترسلها في البريد رأسا ؟

فأجاب :

ــ اخبرتك اني اجهل عنوان الرجل ، وقد تضيع اذا ارسلتها في البريد أو قد ترد الي . وأنا أود ان اتثبت من وصولها ، فهي امانة في عنقي . وكل ما أعلمه ان هذه الرسالة موجهة الى « الصفواني » من ابنه المقيم في فلسطين في القدس ، في القسم الذى اغتصبه اليهود .

فتناولت الرسالة منه ، وقلبتها .

وحدق الي رئيس الجمعية ، وقال :

ــ اكاد احزر ان لديك سؤالا اخر تريد ان توجهه الي ، ولعلك تستحي مني وانا اعفيك من عنائه ، واطلعك باختصار على الكيفية التي وصلت فيها الي هذه الرسالة .

(٣)

واشعل رئيس الجمعية لفافة تبغ ، وتابع :

ــ منذ عشرة اعوام ، عدت الى وطني سورية ، بعد غياب طويل عنها ، ولما انتهى اهل بلدتي من السلام علي ، قمت بزيارة الى الاماكن الاثرية العديدة في الشرق ، وكان لابد لي من زيارة القدس . وضاعت مني في طريقي اليها محفظة نقودي ، ولم يكن معي من المال الا ما كان فيها . وخطر لي ، اول ما خطر ، الحل الوحيد ، وهو ان ابعث ببرقية الى اهلي اطلب منهم ما احتاجه . فتوجهت الى ادارة البرق ، وعرضت على المكلف بالامر قضيتي وسألته عما اذا كان في امكاني ان أؤجل الدفع الى أن يردني الجواب ، اذ ليس معي اجرة البرقية ، على أن أترك له خاتمي الذهبي ، ضمانة .

فنظر الي الشاب الموظف ، بعد تفكير قليل ، وقال :

ــ اترك خاتمك في اصبعك ، ما هو المبلغ الذى تحتاجه ؟

فأجبت :

– مصارفات مكوثي هنا ، ثلاثة أيام ، وأجرة عودتي الى دمشق .

فقال :

– لا داعي لارسال البرقية . اني اعرض عليك القيمة ، ومتى عدت الى بلدتك ، تردها لي .

فقلت :

– ولكنك لا تعرفني

فقال :

– الست مثلي عربيا ؟ ان العروبة اشرف صلة تجمع القلوب .

فشكرته شكرا جزيلا ، وتناولت منه المبلغ .

ودعاني الى زيارته في بيته ، حيث تعرفت على والديه ، فاحسنا وفادتي .

ورجعت الى بلدتي ، فارسلت اليه المبلغ ، ورأيت من اللياقة ، بعد ان عدت الى مغتربي أن أبعث اليه بهدية لطيفة في البريد ، ففعلت ، ووردني منه كتاب شكر .

ثم انقطعت اخباره . .وحلت الفاجعة في فلسطين !

ومرت اعوام ..

فاذا بهذه الرسالة ترد علي منه منذ شهر تقريبا ، ومعها رسالة ثانية يطلب مني فيها ان ابعث الى والده في دمشق بالرسالة التي سلمتك اياها . وهذه الطريقة ، على ما يظهر ، هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع ان يبلغ بها والده اخباره. لان الرسائل التي ترد الى أميركا من اسرائيل ، لا تحوم عليها الشبهة .

هذا ما قاله لي رئيس الجمعية ، فدسست الرسالة في جيبي ، ووعدته بان انفذ وصيته مهما كلف الامر .

(٤)

ووصلت الى دمشق ، وما كدت استريح في احد الفنادق حتى مضيت ابحث عن « نعيم الصفواني » ، فلم يكن يعرفه احد من الذين توجهت اليهم ، وعدت الى الفندق ، وقد بدا علي الاضطراب ، فسألني صاحبه عن السبب فاخبرته ، فقال :

– ما دام الرجل فلسطينيا ، فما عليك الا أن تذهب الى أحد مخيمات

اللاجئين ، فلا بد أن تهتدي اليه وقصدت مخيما ، وسألت أول من قابلته فيه عن « الصفواني » ، فقال لي :

ـ اترى تلك الخيمة الرابعة الى الجنوب ؟ انه هناك •

وتوجهت اليها ، فلم يكون فيها أحد ، فعدت الى من أرشدني ، فقال :

ـ لا ندحة له من ان يرجع قريبا ، فهو يبيع في الاسواق بعض الحلويات التي يصنعها بيده ليقوم باود معاشه • فاذا احببت ، فانتظره ، تفضل ، اجلس •

(٥)

وقص علي هذا الرجل نبذة من حياة «الصفواني» :

لقد كان من وجهاء العرب في القدس ومن اغنيائهم ، ينعم بالسعادة هو وامرأته وولده الشاب الذي كان يعمل في دائرة البرق • ثم حدثت الكارثة التي لا تكاد تشبهها كارثة في التاريخ ، فدافع مع المدافعين العرب ، وظل الى اللحظة الاخيرة يصب نيرانه على المهاجمين الصهاينة ، وهو متترس في داره في احد الاحياء الجديدة من المدينة • ورأى اخيرا انه لابد من الانسحاب ، فقد فشلت جميع وسائل الدفاع العربي في القدس • واشتد اليهود بالهجمات ولم يتمكن العرب من الصمود وقد خفت الذخيرة التي كانت عندهم • وفي تلك المعركة استشهدت زوجة « الصفواني » امامه وكانت تساعده في اطلاق الرصاص اذ اصابتها شظية قنبلة يدوية • اما ابنه فقد كان غائبا عن الدار ، واضطر الوالد الى الالتجاء الى عمان أولا ، ومنها جاء الى دمشق وراح يسأل عن ابنه ، فوردت عليه اخبار تفيد انه بقي في القدس الجديدة التي احتلها اليهود ، وانه يتعاون مع الصهيونيين • ولا تسل عن حزن الوالد لهذه النتيجة التي لم يكن ينتظرها ، لاسيما وقد كان يضع كل آماله بأن يكون ابنه أحد الذين يأخذون بالثأر من هؤلاء اليهود • وعبثا حاولنا نحن الذين نعرفه ان نخفف من غضبه على ابنه ، وقد طلب منا أخيرا ان لانأتي على ذكره امامه اطلاقا •

ومضى هذا الفلسطيني يحدثني عن بعض تفاصيل النكبة ، ثم التفت الى مدخل المخيم ، وقال :

ـ انظر ، ذلك هو الرجل الذي تبحث عنه ، لقد جاء •

(٦)

وتأملت ، فاذا شيخ هرم ، احنت الاعوام ظهره ، وكسا الشيب

شعره ، عتيق الثياب ، يحمل في يده فرشا صغيرا فيه بقايا حلويات ٠

وانتظرت الى ان ولج الكوخ الحقير الذي هو مأواه ، فتوجهت اليه ، وصفقت على المدخل الذي نابت فيه قطعة من الخيش مناب الباب ٠

ودعاني الى الدخول ، فدخلت ، وسلمت عليه ٠ فرحب بي وسألني عن مرامي ٠

فسلمته الرسالة ، وفضها بحركة عصبية

وطالع السطور الاولى فيها ٠ ثم اعادها الي قائلا :

ـ اقرأها ، انت لي بربك ٠٠

فطالعت :

والدتي العزيز

اكتب اليك هذه الرسالة بواسطة صديقنا الذي يقيم في الجمهورية الاميركية الجنوبية ، ولا ادرى اذا كانت تصلك ٠ لقد حوصرت في ادارة البرق يوم حدثت النكبة الهائلة ، ثم استولى عليها اليهود ، فتمكنت من الهرب ورجعت الى البيت ، فعلمت بمصرع امي وبارتحالك ، فقررت ان ابقى لانتقم ٠ وتظاهرت باني اتعاون مع اليهود ، فارتابوا بي أول الامر غير انهم مالبثوا ان اطمئنوا لي ، ورحت اعد خطة الانتقام ، وكلما هممت في تنفيذها حدث ما لم يكن في حسباني فاجلتها ٠ انا اليوم مستخدم في احد المطاعم ، وقد اعددت الخطة التي لا يمكن ان تفشل وان كنت اعلم اني سادفع ثمنها حياتي ٠ فلابد لهؤلاء ان يدركوا اني انا مدبرهـــا بعد حدوثها ٠ سيكون نصيبي القتل فورا ٠ بعد غد يقيم فريق من الضباط حفلة « وداع العزوبة » لاحد رفاقهم الذى سيتزوج قريبا ٠ ساكون انا الذى يقدم لهم الشراب ، وقد تمكنت من الحصول على قنينة من سائل يقتلون به الفئران ٠ وسأمزج ما تحويه القنينة بشراب هؤلاء المحتفلين ، وساقدمه اليهم ، وليقض الله امرا كان مفعولا ٠ لن استطيع النجاة بعد هذا الحادث ، ولكني راض ، فقد أكون قضيت على طغمـــة من ضباطهم وانتقمت لوالدتي التي صرعها رصاصهم الاثيم ٠ اتمنى ان تكون على أحسن ما يرام ، وثق ان النصر النهائي لنا ٠

١ أيار ١٩٥٣ ابنـــك

وتأملت الشيخ الذى امامي ، فاذا وجهه متهلل ، واذا دلائل الاعتزاز ببطولة ابنه تطل من كلمات الشكر التي اغدقها علي وعليه ، واذا بالدموع تنهمر على خديه المجعدين ٠

أَوْراق اليانَصيب

وصل من بلدته البعيدة الى العاصمة ، وكانت هذه اول مرة يزور فيها دمشق ، وقد جاءها للنزهة والتفرج ، فلم يكن له اى غرض ، ولم يكن له من اصدقاء او انسباء الآن فيها ٠

اما معرفتي به فتعود الى انى قمت منذ اشهر ، بسياحة فى المنطقة التى يسكن احدى قراها ، ونزلت في فندق قبالة داره ، ولما سألت عن دليل يرشدنى الى احد الاثار التاريخية فى الضواحى ، تطوع هو للعمل ، ثم دعاني الى بيته حيث عرفني على زوجته ، وعلى ابنته البالغة من العمر سبع سنوات ٠

وقبل أن أترك القرية ، ألححت عليه بزيارة الشام ، فوعدني بها ، وها هو يؤدي وعده ٠

وصارحني بعد ان استراح قليلا من عناء السفر ، ببرنامج زيارته ، وقال :

ــ سأمكث في دمشق عشرة أيام ، وقد قدرت مصروفي بعشر ليرات يوميا ، بمعنى ان معي مئة ليرة مرصودة للبذل ٠ فهل ترى انها تكفي ؟

قلت :

ــ بالطبع ، مادمت لا تنوي ان تسير في مناهج الترف والبذخ ٠

فضحكنا ، ثم قلت له :

ــ هلم بنا لاريك اهم ما في المدينة ، ولنبدأ « بالمرجة » ٠ اتعرفها ؟

ونعرج بعدها على سوق الحميدية وتوجهنا الى طيتنا ، غير عابئين بالرياح التي كانت تهب من الشمال ٠

وما كدنا نطل على الساحة حتى شاهدنا عددا من الناس قد تجمهر ، فاقتربنا ، فاذا فتاة صغيرة من اللواتي يبعن اوراق اليانصيب في وسط

الحلقة تبكي ، فسألنا ، فقيل لنا انها بينما كانت تعرض على أحد المارة « ورقة » ، فتحت اصابعها لتخرج التي راقت للشاري ، فهبت الريح عنيفة ، فأطارت ما كان بين يديها ، وركضت خلف الاوراق ، وركض الاولاد الذين كانوا في المرجة ، ولكن الريح كانت من الشدة ، بحيث ذهبت باوراق اليانصيب بعيدا ، واختفت عن الاعين ، ولم تستطع ان تلتقط الا ثلاثا منها ، وهي تخشى ان تعود الى البيت ، لتخبر امها بما جرى ، خوفا من غضبها .

وكان المارة الذين تجمعوا حولها يأسفون على ما اصاب الفتاة التي لا تتجاوز العاشرة من عمرها ، ثم يهزون رووسهم ، وينصرفون ، ليفسحوا المجال لغيرهم يحذو حذوهم .

وكانت الصبية تبكي وتشهق .

ورأيت رفيقي القروي يتقدم من الفتاة ويسألها :

- كم ورقة اضعت يا بنت ؟

فقالت :

- خمس عشرة ورقة من ذوات الخمس ليرات

وابصرته يمد يده الى جيبه فينتشل منها محفظته ، ويسحب منها خمسا وسبعين ليرة سورية منها ، ويسلمها للفتاة وهو يقول :

- خذي ، هذه ثمنها

وتأمل الحاضرون فيه ، وقد بدت الدهشة على وجوههم لهذا العمل النبيل ، وسرت بينهم همسات الاعجاب به وكأن الفتاة لم تصدق ، فلم تجرأ على مد يدها ، فعاد يقول لها :

- خذي هذه ثمنها ، وانتبهي مرة اخرى

ووضع القيمة في يدها

والتفت الي ، وقال :

- لنتابع طريقنا

فقلت له ، ونحن نتجه الى سوق الحميدية :

- ولكن ..

فقاطعني بقوله :

- اني اعرف ما تريد ان تقول ، ستلومني على عملي ، وسترد انه كان يكفي ان اتبرع لها بليرة او أقل ، أو أن لا أتبرع لها ابدا . ولكن ، ألم تر انها بعمر ابنتي ؟ لقد ذكرتني ، وهي تبكي ، بالصغيرة التي تركتها

في القرية ، وشعرت كأن قلبي يذوب بين دموعها وشهيقها · ولم تعلم السرور الذي خامرني حين شاهدتها تمسح عبراتها ، لادركت اني لم أكن مغبونا في هذه الصفقة · لقد اتيت لاصرف مائة ليرة في دمشق ، فهل تراني فعلت غير ذلك ؟ لقد بقي معي الان عشرون ليرة ، وهي تكفيني ، وفقا لحسابي ، يومين ، وسأرجع بعدها الى قريتي · ان الشام ، وآثارها لن تهرب مني ، واذا لم استطع ان أطلع عليها كلها في هذه السفرة ، فموعدي بها السفرة القادمة · مسكينة بياعة اليانصيب ! الا تقدر سعادتها الان ، وقد استردت ثمن ما اضاعته ؟ ··

الواقع الغريب

عرفته كما عرفت نفسي ، فقد كان رفيقي في المدرسة ، ورفيقي بعد ان خرجنا منها نعمل معا ، ونسهر معا ، وكنت ادعوه « الفاتح » تيمنا فقد كان اسمه « عبدالفتاح » • ثم فرق الدهر بيننا •

وتراسلنا مدة ، ثم انقطعت بيننا اسباب الكتابة ، وسألت عنه احد انسبائه بعد مدة طويلة ، فقال لي انه سافر الى بلاد تكاد تكون مجهولة في افريقيا على حين فجأة ، ولم يعلم احد داعي سفره ، فلم يكن بحاجة الى الاغتراب •

وانقضت سنوات ••

وبينما كنت أول أمس في الفندق اذرع الممشى جيئة وذهابا ، وانا افكر فيما اكتب ، اعترضني جاري في الغرفة ، وسألني عما بي ، فاخبرته ، فقال :

– اجلس لاسرد عليك قصة شاب عرفته ، فقد تكون موضوعا لك •

فجلست ••

وحدثني جاري فقال :

– احبها كما لم يحب فتاة قبلها مثلها •• احبها بكل احاسيسه حبا شاملا كاملا ، ملك عليه عواطفه ، وشغل وجوده • احبها ، فهو في رأي الناس يعيش في الدنيا التي يعيشون فيها ، ولكنه في الواقع ، يعيش في دنيا خاصة لا يشاركه فيها شريك ، في دنيا طريفة خلقها له هذا الحب •

احبها منذ وقعت عليها نظرته للمرة الاولى ، وظل يحس بالرعشة التي احسها في تلك الهنيهة ، وكأن القدر بلغته الخفية • اشار اليها حين رآها للمرة الاولى وقال له : هذه هي !

احبها حبا صامتا هادئا في ظاهره ، لاتبدو منه للعين بادرة ، ولكنه

في لبابه حب لاهب جارف كأنه البركان يقذف بالحمم ٠
احبها ولا يدري لماذا احبها ، وقد يكون هذا من شروط الحب العنيف الصادق ، ومتى عرف الفتى لماذا احب فتاته ، فقد بطل سحر الحب ، وانكشف الطلسم الذي يغدق على الشعور هالة من القداسة ٠
ولم يكن الفتى مبتدئا في عالم الوجد ، فقد اعترضت طريقه فتيات كثيرات ، منهن الجميلة التي وهبتها الطبيعة مفاتن تغري وتغوى ، ومنهن الذكية التي تحاول ان تستثير الانتباه بما انعمت عليها الطبيعة من فطنة احبها ، واحب كل شيء فيها : روحها المرحة التي تتجلى في ابتسامة دائمة تطفو على وجهها ، نفسها المتفائلة التي تنظر الى الغد نظرة الامل الوثيق بان الغد لابد ان ينطوي على خير كثير ، ثقافتها المقتبسة من الكتب العديدة التي تطالعها ، نظراتها الراضية التي يحس المرء وهو هدفها انه محمول على اجنحة خفية الى آفاق من السعادة احبها ، واحب كل شيء فيها حتى هذه التفاصيل الصغيرة التي لا شأن لها ولا أهمية :
طريقة تصفيف شعرها ، ولم تكن فيها مبتكرة ، ولكنه كان يرى كأن هذا التصفيف مبتكر ، وكأن هذه الطريقة يراها للمرة الاولى في حياته ، فسطانها الذي ترتديه بشيء كثير من العناية ، وشيء قليل من الاستهتار القروي يضفي عليها اناقة طبيعية لا تكلف فيها ولا تصنع ،
احب كل شيء فيها ، حتى هذه العادات التي يستهجنها في غيرها ، ويكرهها في سواها ٠
ولم يكن الفتى يعاني جوعا عاطفيا ، فقد اكتوى فؤاده بنيران الهوى مرارا عديدة ٠
ولم يكن الفتى من هؤلاء الفتيـــان الذين لم يتعودوا خوض ميادين الكفاح ، بل كان قد تمرس في مصائب الدهر تمرسا طويلا ، وكانت حياته سلسلة من المغامرات في سبيل النضال اليومي ، تقلب فيها صعودا وهبوطا ، ومرت عليه فترات من الزمن كان فيها من الاغنياء ، ثم خاطر بثروته ، ثم عاد كما كان فقيرا ، ثم نجح ، ثم عاد الى المجازفة ثم خسر ولم يكن الفتى من الذين يقضون ايامهم حسرة على ما فات ، بل كان يعود الى اول الطريق وكله أمل ورجولة وثقة فان كان يأسف حين عرفها لانه يمر في ظروف قاسية ، فلأن هذه الظروف تمنعه من ان يقدم للفتاة ما يبرهن على حبه احبها ، فاذا نفسها مكشوفة له وكأنه قد عاشرها منذ طفولتها ، فهو يدرك معنى نظراتها وبسماتها ، فلو انها حاولت ان ترنو الى غيره رنوة حب ، وجربت أن تموه عليه ، لاطلع على نيتها كأن يقرأها في كتاب مفتوح ٠

احبها وسما حبه سموا لا عهد له بمثله قبل الان ، فهو قد استطاع ان يراها مرات عديدة وحدها ، وقد كان في وسعه ان يطبع على فمها قبلته اللاهبة ، ولم تكن الجرأة تنقصه ، بيد انه كان يضن بان يتهاوى حبه الى ما تهاوى اليه ما عرف من حب سابق .

ثم سكت جاري قليلا ، فسألته :

- وماذا جرى

فقال :

- ماتت الفتاة بسكتة قلبية

ثم عاد جاري الى السكوت قليلا ، وتابع :

- ثم سافر الفتى الى بلاد في افريقيا تكاد تكون مجهولة لينسى فتاته .

فقلت :

- وما كان اسمه ؟

اجاب :

- عبدالفتاح ، ولكنه كان يؤثر ان نناديه « الفاتح » .

فبدرت مني صيحة استغراب

فسأل جاري :

- مابك ؟

قلت :

- لا شيء ، ولكن ثق ان الواقع احيانا يكون اغرب من الخيال .

دستور السلطان

غدا نصل الى بيروت ، وما احلاك يا بلادنا ، ليت هذا المركب يضاعف سرعته ، فيكون وصوله اليوم .

بمثل هذه العبارات كان « يوسف جمعة » يخاطب نفسه ، وهو يتمشى على ظهر الباخرة ذهابا وايابا ، دون أن ينتبه الى حركة الركاب والبحارة حوله . وكثيرا ما كان يرسل الاهات الخفيفة ، كأن الشوق الذي يحسه يضيق به فواده .

منذ سبعة اعوام غادر يوسف جمعة ، وطنه الى أميركا ، لارغبة في المال بل فرارا من الاضطهاد ، وهو الان يذكر الحادثة التي سببت هجرته ، مؤكدا أن آثارها امحت ، وان تكرارها مستحيل ..

منذ سبعة اعوام كان يعيش في بلدته اهنأ عيش ، فهو يملك قطعة طيبة من الارض ، تنتج له ما يحتاجه من المؤونة ، وله دار واسعة يسكن في شقة منها ، ويسكن اخوه الاكبر المتزوج في الشقة الثانية ، وهما متفقان اتم الاتفاق ، بعد ان اقتسما الثروة التي تركها لهما المرحوم والدهما . فلا غرابة اذا كان يوسف ابعد الناس عن الافتكار في المهاجرة . ولكن الايام التي تخفي من الكوارث مالا يحلم به العقل ، لم تشأ الا ان تعكر صفاءه . فقد اراد يوما ان تكون معه امرأة تشاركه رغده ، وقاده نصيبه الى بيت « نجيب الرمال » وأخذ يتردد عليه ، وفي نيته ان يخطب كريمته « سعاد » ..

وبينما هو يختار في فكره من يكلفه بان « يشاور » والدها مع اخيه جاءه من « مختار » البلدة رسول يستقدمه اليه ، فاستغرب هذه الدعوة وحسب لها الف حساب ، فالمختار لا يدعو احدا الا لشأن خطير ، ولم يخب ظنه ، فما وقف امامه حتى بادره بسؤاله عن معنى تردده على بيت «الرمال»، فاطلعه «جمعة» على قصده ، فقال المختار بلهجة صارمة :

– وكيف تتجاهل ان ابني «له خاطر» في البنت ؟
فاجاب جمعة :
– لقد تحدثت انا واياها ، فرضيت بي
فرقص شاربا المختار غضبا ، واجال نظره في الحاضرين عنده ، وقال :
– اسمعوا هذه الوقاحة !
ثم التفت الى «جمعة» ، وصاح به :
– ولك يا كلب ، اتتجرأ على هذا الكلام امامي ؟
فتألم «جمعة» لهذه الاهانة ، ولم يستطع كظم غيظه ، مع علمه بان الرد في وجه المختار ذو عواقب وخيمة ، واجابه :
– أرجوك أن تحفظ كلامك ، فما أنا كلب ، وقد يكون الكلب سواي .
واحس جمعة بلطمة قوية على محياه ، وهم بان يقابل لاطمه بمثلها ، غير ان ثلاثة من الحاضرين ، اسرعوا فامسكوه ، ودفعوه الى الخارج ، وهم يركلونه باقدامهم ، ويسمعونه اجرح الشتائم .
وفي تلك الليلة ، سطا اللصوص على دار جمعة ، فسرقوا الكبش الذي كان يعلفه .
وفي الاسبوع التالي ، ذهب الى حقله ، فوجد الزرع مقلوعا ومرميا الى جانب الارض .
وفي الاسبوع الذي عقبه زاره صديق ، وهمس في أذنه ان المختار قد اقسم لن ينفك عن ملاحقته حتى يجعله عبرة لمن اعتبر .
وشاور جمعة شقيقه فنصحه بالغياب بعد ان لامه على معاندة المختار أشد اللوم .
وتوجه « جمعة » بعد أيام قليلة الى الشام ، ومنها الى بيروت ، ومن بيروت استقل باخرة الى أميركا ، وهو مصمم النية على أن يقضي بقية عمره بعيدا عن مسقط رأسه .
بيد ان حادثا خطيرا حمله على أن يعدل عن نيته ، اذ وردت الاخبار ان السلطان عبدالحميد أطلق الدستور وعمّم الحرية ونشر المساواة ، واصبحت سورية جنة تجري من تحتها الانهار ، فلا ظلم ولا جور ، كل انسان يعرف حقه ولا يتعداه .
وكان « جمعة » قد جمع في هذه الاعوام السبعة مائة ليرة انكليزية ، ومائة انكليزية سنة ١٩٠٨ هي ثروة عظيمة ، فصفى اعماله ، وعاد الى وطنـــه .
ووصلت الباخرة الى بيروت ، واستقرت بعيدة عن رصيف المرفأ ،

كغيرها من البواخر الكبيرة التي لم تكن المياه القليلة قرب الرصيف تستطيع حملهـــا •

وجاء السماسرة بالزوارق الصغيرة ، فأوقفوها بجانب الباخرة ، وصعدوا اليها ، وضجيجهم يملأ الفضاء ، وتسابقوا الى استلام الركاب وامتعـــة الركاب كأنها اسلاب حرب : من سبق أخذ !

وكان «يوسف جمعة» قرب حقائبه ، ينتظر سكون هـــذه الحركة ، فابصر رجلا من السماسرة يتقدم منها بعزيمة الابطال ، ويتناول حقائبه بالتتابع ، ويحملها دون استئذان ، فاعترض ، فلم يحفل العتّال باعتراضه أقل حفول ، وسمعه يقول :

ـ تعال ، اتبعني يا افندي !

فاذعن للامر ، وتركا الباخرة ، وركبا الزورق ، وقبض السمسار على المجاذيف ، وحركها وهدفه اليابسة •

واغتنم «جمعة» الفرصة ، فسأله عن الاجرة التي يتقاضاها ، فقـــال له السمسار بلهجته البيروتية الضخمة :

ـ القيمة التي تأمر بها يا افندي : لا فرق بيني وبينك •

واكد «جمعة» ليعرف الصلة التي تجمعهما ، فلم يتوفق ، فاعاد سؤاله فكان جواب صاحب الزورق :

ـ نصف « انكليزية » وسأوصلك الى لوكندة ممتازة سعرها رخيص وأكلها نظيف •

فشكره المسافر على كرمه ولطفه •

واشر موظف الكمرك على الحقائب بسرعة ، فلم يكن فيها ما يستحق النظـــر •

ورافق السمسار «جمعة» الى فندق قريب من المرفأ ، وطلب من صاحبه أن يعد « لحضرة الافندي » مكانا على ذوقه ودخلا الى الغرفة، فعاد الى شكر السمسار على عنايته ، وفتح «كمره» وسحب منه نصف انكليزية ، وقدمها اليه •• فتأمله السمسار وضحك ضحكة غضب ، وقال :

ـ ماذا تعطيني ؟

فاجابه «جمعة» :

ـ القيمة التي قلت عنها ••

فصرخ فيه السمسار :

ـ يالك من حمار • الشرط هو نصف ليرة انكليزية على انزالك من الباخرة فقط ، وأنا قد أوصلتك بالزورق ، وحملت حقائبك ، وأدخلتك

الى الكمرك ، واخرجتك منه ، وارشدتك الى هذه اللوكندة • اتعتقد اني اتحمل هذا العذاب كله لاجل نصف ليرة ؟ يالك من حمار :

فتعوذ جمعة بالله ، وهدأ ثائرة نفسه ، واستفهم من العتال عما يبتغيه جزاء اتعابه ، فقال :

ـ ثلاث ليرات

فغمرت الدهشة فم «جمعة» ، وقال :

ـ ثلاث ليرات ؟ انا لا أدفعها لك ، اني اودي ما تم الاتفاق عليه فان ابيته ، فدائرة العدل بيننا ، وهي تنصفنى منك فانتشل السمسار الخنجر من زناره وهزه مرات ، وقال وشرر الحنق يتطاير من عينيه :

ـ اذا لم تدفع الثلاث ليرات الان مزقتك بهذا الخنجر ••

ودنا منه يريد ان يغرز سلاحه في امعائه ، وكاد ان يفعل لولا مجيء صاحب الفندق ، فتوقف السمسار عن عمله وهو يقول :

ـ انظر هذا الكلب ابن الكلب ، اطلب منه ثلاث ليرات فرفض دفعها •

فربت صاحب اللوكندة كتف السمسار ، وجعل يلطف من حدته ، ثم سحبه الى خارج الغرفة ، وهو يطيب خاطره ، وعاد الى حيث كان جمعة قد سمره الاستغراب ، وقال :

ـ الافضل لك يا ابني ان تؤدي له مايطلبه ، ولا تظن اني شريكه ، فان ما فعله معك عندي بوسعه ان يفعله معك في أي مكان ، ان هؤلاء السماسرة لا يعتبرون شعورا ولا يقدرون عواقب •

فقال « جمعة » :

ـ انا لا أود ان ابخسه حقه • ان الشرط بيني وبينه نصف ليرة ، فكيف أدفع له ثلاث ليرات ؟ واذا شكوته للشرطة ؟

فهز صاحب اللوكندة رأسه ، وقال :

ـ أية شرطة وأي بطيخ ، حط بالخرج ، واحفظ شرفك

واخرج جمعة من «كمره» ثلاث ليرات ودفعها للسمسار وهو صاغر ، ولم ينس السمسار بعد أن استلمها ، أن يرشقه بعبارات الاهانة •

وجلس جمعة على حقيبة من الحقائب ، وسأل نفسه :

ـ أين الدستور الذي نشره السلطان عبدالحميد ؟ أين الحرية التي عممها ؟

ولم يشأ أن يدع اليأس يستولي عليه ، فقال :

ـ قد تكون المساواة التي نشرها السلطان موجودة في الشام •

ليس في دمشق مرفأ ، فمن البديهي ان لا يكون فيها سماسرة • وقد

فرح «يوسف جمعة» لذلك ، واحب أن يغتنم وجوده فيها فيزور مواضعها التاريخية •

حقا ، ان المساواة في الشام ! والدستور يحفظ حقوق الجميع ، فلا ظلم ولا جور ، لقد مضت عليه ثلاثة أيام ولم يعتد عليه أحد ، صدقت الاخبار التي وصلته حين كان في اميركا بـــان السلطان عبدالحميد نشر الحرية •

هذا ما كان يجول في خاطر «يوسف جمعة » ، وهو يدخل الى قهوة على ضفة بردى غاصة بالناس ليستريح قليلا ، ولم يكن في مدخل القهوة مكان فارغ ، فقصد الى وسطها وهو يلملم حاله ويشق لنفسه طريقا بين «النراجيل» والارجل • وعثر فجأة « بنربيش » ممدود على الارض ، فتمايلت النرجيلة ، وكادت تقع لو لم يتقدم جمعة بسرعة ، فيركزها بيده ، ويلتفت الى صاحبها ليعتذر منه ولكن صاحبها ـ شارب النرجيلة ـ لم يكن رجلا من عامة الناس ، بل كان ضابطا تركيا مرتديا الكسوة العسكرية ، فاعتبر لمسة « يوسف جمعة » للنرجيلة اهانة لا يمكن الصبر عليها ، فوقف وامسك سوطه الذي كان على المائدة ، ولاحه في الهواء ، وأهوى به على « يوسف جمعة » فصرخ هذا من الالم ، وقال :

ـ لماذا تضربني وانا لم اعثر بنرجيلتك قصدا ، وانما كان ذلك دون انتباه مني ، وقد كان بودي الاعتذار منك ؟

فرفع الضابط سوطه مرة جديدة ، وهو يردد :

ـ اسكت يا « پُشتْ » ، اسكت « پشت » •

فقال جمعة :

ـ اين الحرية التي نشرها السلطان عبدالحميد ؟

ليته لم يقلها ، فما سمعه الضابط حتى صرخ :

ـ سكتر يا كلب ، يا لعين ، أتسب مولانا السلطان ؟

واهوى عليه بسوطه دون شفقة ، الى ان سقط «جمعة» على الارض

ولم يكتف الضابط بذلك ، بل غادر القهوة حالا ، ليعود بعد لحظات ومعه أربعة رجال من الدرك الى «يوسف جمعة» الذي كان يحك مكان الضرب من جسمه ، فالقوا القبض عليه ، وساقوه امامهم وهم يشتمونه •

أما الجالسون في القهوة ، فكانوا يتأملون هذا المشهد صامتين ، والتأثر ظاهر على وجوههم ، وليس في امكانهم التدخل لانهم يعلمون ما نتيجته •

اما صاحب القهوة ، فقد تجرأ وتقدم من الضابط ، وسأله بلطف :

الى أين تذهبون به يا بيك ؟

فاجابه الضابط بلهجة القائد المنتصر

– الى المشنقة ، فقد سب مولانا السلطان !

وبقي «يوسف جمعة» في الحبس خمسة ايام وهو ينتظر المشنقة ، وكان كلما حاول الدفاع عن نفسه امام السجان ، او امام غيره ، سمع الاهانات ، فسكت ٠

بيد ان الله الذي لا يبلي حتى يعين ، بث في قلب صاحب القهوة الحنو عليه ، فزاره في سجنه ، ورجاه « جمعة » ان يسعى لتخليصه من المشنقة ، فوعده خيرا ٠ ورجع اليه في اليوم التالي ، ليخبره ان نجاته لا تتم الا اذا ادى خمسين ليرة رشوة لاولياء الامر ، فان الذنب الذي اقترفه كبير ، وكان صاحب القهوة صادقا ، فاستلم من «يوسف جمعة» المبلغ المذكور ، وذهب به الى مدير الشرطة ، فقدمه اليه ، وما لبث ان أمر باطلاق السجين ٠

وخرج «يوسف جمعة» من السجن ، وفي نيته ان يترك الشام حالا ، فان الحرية لم تكن منتشرة فيها ، ولا اثر للدستور الذي اطلقه السلطان ٠

ولم يشأ جمعة أن يقطع الامل الذي ظل يغمر فؤاده ، مدة طويلة ، فقال في نفسه :

– من المعقول ان تكون الحرية مفقودة في مدينة كبيرة كالشام ، وهذه الامنية التي ابحث عنها لابد ان تكون في مسقط رأسي ، فالناس هناك ابسط ، والقلوب ارق ٠

ها هو في بلدته ٠٠

وانتهى جيرانه واقاربه من السلام عليه ، والاستفسار عن بلاد الذهب٠

وها هو يقابل مستخدما موفدا من مختار البلدة ، يطلب منه ان يذهب الى «منزول» المختار للسلام عليه ٠

واستبعد جمعة ان تتكرر الحادثة الماضية ، ورأى ان حقه يمنحه الحرية في ابداء رأيه ، فقال :

– لست مكلفا بالذهاب الى دار احد ، فالعادة ان يجيء الناس للسلام على القادم من السفر في بيته ، فان شاء مختارك ، فهذا بيتي مفتوح له ٠

وسر جمعة لهذا الجواب الذي هو بمثابة انتقام من المختار على اعتدائه، منذ سبعة اعوام ٠

ومر الاسبوع الاول ، ولم يحدث فيه شيء ، فازداد اطمئنان «جمعة» ووثق ان الحرية التي يفتش عنها ، تظلل هذه البلدة فلا غرو اذا عقد النية على البقاء فيها ٠٠

انما ظنه خاب ، ففي طليعة الاسبوع الثاني ، طرق بابه مأمور جديد من المختار وفي يده لائحة بالضرائب التي يجب عليه دفعها :

سبعة مجيديات صنعة (مجيدي عن كل سنة)
سبعة مجيديات مخترة (مجيدي عن كل سنة)
سبعة مجيديات حراسة (مجيدي عن كل سنة)
ففرغ صبر جمعة ، وصاح بمأمور المختار :

ـ اذهب الى من ارسلك ، وقل له ان هذه الضرائب يدفعها المقيم ، اما انا ، فقد كنت غائبا هذه الاعوام السبعة ، وليس علي ان ادفع شيئا .

وعاد المأمور بعد ساعة ، ومعه عسكريان فدخلا الدار بلا استئذان ، وامسكا بتلابيب جمعة وكبلاه بالحبال ، ثم فتشا الدار الى أن وجدا «الكمر» الذي كانت فيه بقية ثروته ، فاخذا منها كمية لا بأس بها ، ورجعا اليه فبصقا على وجهه ، واهويا عليه بالكرابيج ، وساقاه الى بيت المختار حيث طرحه في جانب من الاسطبل .

ووصل الخبر الى اخيه ، فقصد توا الى المختار ، فاسترضاه ، وطلب منه رخصة ليرى المسجون ، فرخص له ، وكان هذا شرط المختار :

على أخيه أن يؤدي سبع ليرات جزاء عصيانه على الدولة .

بعد يومين كان يوسف جمعة يودع اخاه ، ويعود الى اميركا عـــودة لا رجعة منها .

وفرغ « يوسف جمعة » من سرد حادثته علي ، وأرسل قبضة من دخان سيكارته في الهواء ، ثم قال لي :

ـ ثق يا صديقي الياس ، انني على الرغم من المصاعب التى لقيتها في وطنى ، احن اليه حنينا يملك عواطفى ، وانا عائد اليه ان شاء الله ، متى انتهيت من تصفية اعمالى ..

قِلّة حَظ

كان علي ان اسافر الى مدينة تبعد عن العاصمة ، مسيرة نصف يوم ، تحصيلا لديون تجارية . وكان لابد ان استصحب مساعدا يودي بعض المهام البسيطة التي تقتضي ـ على تفاهتها ـ اضاعة وقت ، لا أملكه ..

واستعرضت اسماء الذين يمكن ان يرافقوني ، فوقع اختياري على شاب ، كان منذ مدة جارا لنا .. وذهبت الى داره ، فعرضت عليه الامر ، فرضي ..

وجرت بنا السيارة ..

وراح رفيقي يحدثني عن حياته ، كان مما اخبرني : ان معظم المحلات التجارية التي دخلها مستخدما ، لم يلبث اصحابها ان استغنوا عنه ، بدون سبب ، وعزا ذلك الى سوء حظه .

ونويت ان استبقيه مساعدا ، وان اخصه براتب شهري لا بأس به ، وان لا اطلعه على نيتي الا بعد انتهاء الرحلة .

ولا انكر انه كان ينزل من قلبي منزلة طيبة ، فهو لطيف الحديث ، دمث الخلق ، حلو المعشر ، لم اعرف له رذيلة يلام عليها ، ظل في جوارنا ، حوالي ثلاثة اعوام ، كان يتردد اثناءها على محلنا ، ويعاوننا في مناسبات البيع الكبيرة ، فلا نبخل عليه بين الحين والآخر بهدايا تعوض ما بذله من جهد .

ووصلنا الى المدينة التي نقصد

وتحولنا الى فندق ، فيه غرفة طبق المرام ، تحتوي على سريرين

وقضينا اليوم الاول في زيارة بعض الذين دفعوا لي ما عليهم من ديون .

وكان رفيقي ينجز ما اطلبه منه ، كالاستفسار عن الشوارع ، والسؤال عن المواعيد التي يضربها لنا من كان الالتقاء بهم في مساقنا .

وكان مسرورا بما يقوم به
وكنت مسرورا به
وتابعنا عملنا في اليوم الثاني
ورجعنا الى الفندق في ساعة متأخرة من الليل ، بعد ان شاهدنا في احدى دور السينما فلما جديدا ٠

وسألني رفيقي ، وانا استلقي على السرير :
ـ اخفيف نومك ؟

فاجبته بعد صمت قصير :
ـ كلا ان نومي ثقيل ، متى غفوت ، صعب علي الاستيقاظ الا في ساعة معينة من الصباح فقال :

ـ اذن انت مثلي
والحق ، اني كذبت عليه ، فانا ذو نوم قلق ، استفيق حالا لايـــة حركة مهما خفتت ٠ واذا كنت لم اجل له ذلك ، فلأني قدرت ان سؤاله املاه لطفه ٠ فهو يود ـ ولا ريب ـ ان يمتنع ما أمكن ، عما يكون منه أي ازعاج لي ٠ ولا أريد ان يظل محتبسا امر استيقاظي الفوري ٠
ونمنـــا ٠٠
ولم تنقض ساعة تقريبا ، حتى سمعت حركة ، ففتحت عيني قليلا ، فكان رفيقي ، فظللت ساكنا ، لئلا يظن انه هو الذي أيقظني ، فيوبخه ضميره او يخجل من نفسه ٠
وكان يصل الى الغرفة من الممشى ، نور ضئيل ٠ فيستطيع الرائي ان يميز معالم الاشياء ، وان يتبينها ، اذا اطال التحديق اليها ٠
ونهض رفيقي من سريره على حذر ، وتأمل في مليا ، فلم يعاين عليّ آثار الاستيقاظ ، وتحول على رؤوس اصابع رجليه الى معطفي المعلق عـلى الجدار ، ومد يده الى جيب داخلي ، يضم النقود التي قبضتها ، وتناول عدة أوراق مالية من الكدسة التي فيها ، فطواها طيات عديدة على مهل ، ودسها في داخل حذائه ، ثم عاد الى سريره فنام ٠
وكنت اراقب جميع هذه الحركات ، وانا مفتح جفوني شيئا ، وقد تملكتني دهشة سمرتني في مكاني ٠
ماذا ؟
ارفيقي لص ؟
واي لص !
كيف خدعني بمظهره البريء ؟

اتصل صفاقة وجهه الى هذا الحد ، فيسطو على مالي . انا صديقه ورفيقه الذي كنت مصمما على توفير عمل رأفة له ؟

احمد الله على اني لم اضعه في محلي التجاري فلو فعلت لسلبني نصف رأسمالي دون ان ادري ..

لكن ماذا يجب علي صنعه الآن ؟

أ أطرده من الغرفة ؟

اسلمه الى الشرطة ، لتزجه في السجن كما يستاهل ؟

وعلى غرة ، لاح لي الحل المناسب

فلبثت على سكوني ، وانتظرت برهة الى ان نام ، وتأكدت من غفوته ، فنهضت على حذر ، كما فعل هو ، وتوجهت الى حذائه الذي وضعه في زاوية من الغرفة ، فسحبت منه الاوراق المالية ، وارجعتها الى مكانها من جيبي واخذت من معطفي عدة وصولات لا شأن لها ، فطويتها طيات عديدة ، وادخلتها في حذائه ، مكان الاوراق المالية ، وارتددت الى سريري .

وأرقت . فمن يتمكن من النوم ، بعد ان جرى له ما جرى ؟

واستفاق صباحا ، فاستوى واستويت .

وعالجت نفسي حتى لا يظهر علي شكل من الاستياء او الانفعال كأن الامور تسير في مجاريها الطبيعية وذهبنا ، فواصلنا العمل كالعادة .

وطبق هو خطتي ذاتها ، فلم يظهر عليه شكل من الاضطراب .

ولم اعرف ما كان شعوره بعد ان فتش حذاءه في غيابي - كما لابد ان يكون فعل - فوجد فيه الوصولات التافهة بدلا من لاوراق المالية .

وقضيت ذلك اليوم واياه ، دون أن أسمعه كلمة واحدة يشتم منها اني انتبهت الى فعلته المنكرة ، ولم يسمعني هو أية كلمة يشتم منها الاستفسار عن موقفي .

وقلبت في ذهني جميع ما يمكن ان يخمنه ، فوصلت الى هذه النتيجة : لا شك في انه ظن ما حدث حلما من الاحلام .

واتخذت الاحتياطات اللازمة ، فما رجعنا مساء الى الغرفة حتى اسرعت الى صاحب الفندق وسلمته كل ما حصلته من نقود ، ولم ابق معي الا ما يكفينا للمصروف اليومي .

وكان ذلك شأني الى ان انتهى مقامنا في المحلة المذكورة .

ودرجت بنا السيارة تنهب الارض نهبا الى العاصمة ، وقد ايقنت ان اصحاب المحلات التي دخلها رفيقي مستخدما ، لم يستغنوا عنه لقلة حظه ، وانما استغنوا عنه لقلة شرفه ..

لِماذا آثَرتُ العزوبة

قلت لصديقي :

ـ لقد اشرفت على الاربعين ، فالى متى تتهرب من الزواج ، وهو سنة من سنن الطبيعة ، والخاسر الخاسر من يحاول ان يعارضها ؟

فاجاب ، بعد ان تأملني معاتبا :

ـ اسمع :

كنت في ربيعي الثاني عشر حين رأيتها لاول مرة ، قادمة من المدينة التي تقيم فيها مع ذويها ، لقضاء فصل الصيف في بلـدتي حيث يملكون عقارا ثمينا . وكنت اذ ذاك منصرفا الى ارتشاف مناهل العلم في المدرسة . وما ان وقعت عيني عليها حتى شعرت بهزة غريبة تجتـــاحني ، وتلاقت نظراتنا ، فكتبت الكلمة الاولى في سِفر الحب .

كانت هي في مثل عمري تقريبا ، نحيفة القامة ، يضرب شعرها الاسود وقد ارسلته جدائل ، هالة من اللمعة الفاتنة حول وجهها ، في عينيها حنـين خفي الى احلام لا تعلم كنها لها .

واشارت الي اشارة مستترة ، فتقدمت ، ومددت يدي فصافحتها ، وسألتها عن رفيق لي في المدينة التي جاءت منها ، وكان لقاؤنا هذا على باب دارها ، فدعتني الى الدخول ، وسارت بي الى غرفة الاستقبال .

ولا اذكر من احاديثنا في تلك الجلسة الا اننا تـواعدنا ان نلتقي في بستان لاهلها ، قريب من دارها في اليوم التالي .

وتوالت اجتماعاتنا ، تسيطر عليها براءة الطفولة ، فكلامي يقتصر على حوادث المدرسة ، وكلامها على وصف المدينة ، فاذا فرغنا من الاحاديث ، رحت أنظر اليها كاني مسحور ، وبادلتني هي الوجوم .

ولم يشأ القدر ان يمن علينا باكثر من اسبوعين على هذه الوتيرة ، فاستلم والدها برقية من أخيه في المدينة ، بان يعود لشؤون تجارية مهمة .

وافترقنا ٠

وكان الوداع أليما ، ورأيت دموعهـــا تهطل على خديهـا ، وضغطت باصبعها كفي ، وقالت :

ـ الى الابد ٠

فقلت :

ـ الى الابد

ووردت علي بعد ايام قليلة هدية منها هي قلم ذو نقوش جميـلة ، تصحبه رسالة فيها : انها ستبذل جهدها لتعود الى البلدة ، فنتلاقى ٠

سلمتني رسالتها وهديتها نسيبة لها ، تكبرها سنوات قليلة ، كانت دارها حيال دارنا ٠

وقابلتها بالمثل ، فبعثت اليها بعلبة فنية من الخشب لحفظ الخيطان والابر ، وارفقتها برسالة جلوت فيها العواطف التي يستطيع من في سني ان يجلوها ٠

وملأ حبها حياتي ٠

وكان حبا بريئا لا يتعدى الافتكار فيها ، واستعادة ذكريات لقائنا ٠

ولم تكن الرسائل التي تعاقبت منها ، الا لتزيدني شوقا اليها ٠

ووجدت في الاجوبة التي كنت اكتبها ، منفرجا لاحاسيسي المكبوتة ٠

واتم الدهر دعابته

فقرر أهلي السفر الى العالم الجديد ٠

وبذلت اقصى جهدي لعلي استطيع مقابلتها ، قبل السفر ، فلم افلح ٠

والححت على نسيبتها بان تستدعيها ففعلت ، ولكن كيف تسـافر فتاة في عمرها وحدها من مدينة الى قرية بعيدة ؟

وكان والدي يمنيني بالسعادة في أميركا ، وهو يجهل حقيقة حالتي ، وكان جميع رفقائي يحسدونني على سفري ، وانا اتمنى من صميم فؤادي ، لو اتيح لي ان ابقى ٠

ووصلنا الى « بلاد الذهب » ٠

ولم تتمكن الشدائد التي وقفت في طريقي ، باديء الامر ، ان تنسنيها

ومرت اشهر

وكان صباح جميل ، فاذا بموزع البريد يسلمني رسالة خفق لهـــا قلبي ، وفضضت غلافها بحركة عصبية ٠

هي منها ٠

وبكيت ، وانا استعيد قراءتها ، بكـيت من الفرح ، فهي تصف لي

ما تعانيه من الشوق الي ، وتجدد عهدها بأن تظل امينة لحبي الى الابد .

وبادرت الى الجواب موجها عنوان الرســالة الى نسيبتها ، عملا باشارتها .

وتتابعت رسائلي ، وتعاقبت رسائلها

وكانت تلك الوريقات أملي الوحيد في الحياة ، وحفظت كثيرا من عباراتها غيبا .

ومرت أعوام .

وبدأت ادري معنى الحب من صحيح ، ودرست حالتي المادية ،وكانت سيئة ، فاستنتجت ان رجوعي الى الوطن مستحيل ، فانا لا املك مصارفات السفر .

اني أحب فتاتي حبا يفوق الوصف ، فاذا رجعت اليها صفر اليدين ، أصبحت اضحوكة الناس ، فكيف ارجع ؟

كتبت اليها رسالة ، اشرح لها ما أنا عليه ، واحلها من عهد حبي ، واعتقها من انتظاري ، وورد جوابها بأنها تريدني كما أنا ، وتؤكد لي انتظارها الي مهما طال الغياب .

وعلمت انها صادقة في اقولها ، فهل اجور عليها هذا الجور الفادح ؟

في مكنتها ان تتزوج افضل شاب في البلدة ، فلماذا تنتظرني ، وليس أمامي بريق من الرجاء في مستقبلي ؟ علي ان اقابل تضحيتها بمثلها ، ولاكن أنا المظلوم في هذه المبادلة .

وكتبت اليها رسالة مؤداها : اني خطبت فتاة من اهل البلاد التي أقيم فيها ، واطلب اليها ان تقطع رسائلها عني ، فورودهــا يرتب علي مسؤوليات تجاه عروسي .

وكانت رسالة قاسية ، لابد منها حرصا على مستقبلها .

وانقطعت المكاتبة بيننا على اثرها .

ولا اكتمك اني كابدت ، وانا اخط كلماتها ما لم اكابد بعضــه في حياتي . وندمت بعد ان ارسلتها ، واوشكت ان اعود فاطلعها على الحقيقة ، غير اني اقنعت نفسي بواجب هذه التضحية .

ولم تمح السنوات التي انقضت بعد ذلك شيئا من صورتها في خلدي ، بل اخذت تحيط رسمها بدائرة غريبة من القداسة ، فامسيت حين افكر فيها ، اتخشع كأني اتوجه الى مخلوق سماوي .

ونصحني كثير من الاصدقاء بان ابحث عن عروس ، فقد بات عمري جديرا بالزواج ، فلم الق اليهم بالا .

وكنت ـ كلما جاء قادم من الوطن من بلدتي ـ ذهبت للسلام عليه ، واحتلت لاسأله عنها ، غير مباشرة ، خوفا من ان يكون في سؤالي صراحة ، تشويه لسمعتها ٠

وانتهى الي ، يوما ، خبر بان نسيبا لها خطبها ، فلم افرح ولم أحزن ٠

ان روحها لي ٠

فليخطبها من شاء ، فهو لن ينال منها الا حفنة من تراب ٠

انها خلقت لي ٠

وهذا الزواج ؟ الست انا الذي دفعتها اليه حين لفقت عليها كذبتي تلك ؟

وتحسنت أحوالي التجارية ، وعاد اصدقائي يلحون علي بالزواج ٠ وكنت ، كلما أشاروا الى فتاة ، اجريت ، دون ان يكون لي في ذلك يد ، مقابلة بينها وبين التي تركتها في الوطن ، فترجح صفات هذه على تلك ، في رأيي ، فيزهدني هذا الرجحان في الزواج ٠

وغدا ، لفتاتي ، لفرط ما اجريت من هذه المقارنات ، رسم ، هو الكمال بعينه ، وتلاشت ملامحها المادية من خاطري ، ولم يعد لها الا صورة شعرية خيالية ٠

وعشت من حبها في دنيا غريبة ٠

ولكن الايام أبت أن أظل راضيا بهذا الخيال ، قانعا بهذا السراب ، سعيدا بهذا الحلم ٠ فزارني صديق قديم لي كنت اراه في أحايين معينة ، وهو يعرف نتفا عن حبي ، فقال :

ـ اني مطلعك على خبر سيهزك طربا ٠

فقلت :

ـ لقد تمرست بتجارب الحياة ، فليس لاخبارها عندي ما تحسب ٠

فقال :

ـ سأكون مختصرا ، فاستعد لسماع البشرى ان فلانة هنا !

ولم اكن انتظر هذه المفاجأة ، فصمت ، كمن اصابته غيبوبة ، وأخذ قلبي يخفق خفقانا سريعا ، كأنه يريد ان يطير اليها ٠

وحاولت ان اسأله عن التفاصيل ، فصدتني عن الكلام غصة في حلقي ٠

وجربت ان اتظاهر بعدم الاكتراث ، ولكن تدفق الدم الى وجهي ـ وقد شعرت بحرارته ـ فضحني

وادرك الصديق ما أنا عليه فقال :

ـ سأوفر عليك الاسئلة فخذ ما يهمك : انت تعرف انها زفت منذ سنوات الى نسيبلها ، بارت تجارته في المدة الاخيرة فاضطر الى بيع بقية ارزاقه في الوطن والسفر الى هنا حيث له قريب في محلة داخلية ، ووصلا نهار البارح ، وسيلبثان يومين فقط ريثما تسلمهما دائرة الكمرك امتعتهما ٠ وقد ذهبت للسلام عليهما في الفندق الذي حلا فيه ، فرافقني اليه من جديد اذا شئت ٠

فقلت بعد تفكير قصير :

ـ ان علي ، اليوم ، من المهام ما لايترك لي فسحة من الوقت ، مارأيك اذا اجلنا هذه الزيارة الى الغد ؟

اجاب :

ـ كما تريد

ولم يكن شيء من المهام علي ، وانما احببت ان اهيىء مجرى مقابلتي معها ، واستعد لما يجب ان اقوله ٠

ولا اكذب عليك ، فاني لم انم تلك الليلة ونبثت في متناول الخواطر العديدة المتباينة ٠

وقررت في لحظة من اللحظات ان امتنع عن زيارتهـــا ، وخفت اذا قابلتها ، ان اكون سببا في تعكير حياتها الزوجية ، ان شعوري نحوها هو كشعورها نحوي ، واذا كانت رضيت بنسيبها فما رضاها عن حب ، وانما يأسا من عودتي الى الوطن ، واتباعا لاشارتي في رسالتي الاخيرة اليها ٠

وزوجها ؟ اهو مطلع على علاقاتنا البريئة الماضية ؟ فان كان يعلم شيئا فان وجودي سيثير شكوكه ٠ واذا استطعت انا ، ان املك نفسي ، فلم اسرع الى طبع قبلة حارة على فمها أودع فيها شوق عشرين سنة ، فمـــن يضمن انها تستطيع هي ضبط عواطفها ؟

ان مرافقتها لزوجها الى هذه البلاد فيها معنى واضـــح ، فهي التي ألحت عليه بالسفر ،وقصدها رؤيتي ٠ لن اذهب للسلام عليها ٠ والكن ٠٠٠ ولكن ، أمن العدالة ان تكون حملت زوجها على السفر ، وتحملت مشـــقاته ثلاثين يوما في البحر لتراني ، فامتنع عن رؤيتها ؟ وكيف تتمكن المسكينة من احتمال الضربة القاسية التي يعنيها عدم ذهابي اليها ؟

وماذا يكون رأيها في ان لم ارها ؟

لتغضب علي اندنيا برمتها اما هي فلا اريدها الا راضية ٠ ساذهب غدا ٠ وسأكون رزينا فلا ارتكب خفة اندم عليها ٠

وجاء اليوم الثاني ٠

فارتديت اجمل ثيابي ، ووقفت ـ لاول مرة في حياتي ـ امام المرآة لحظة طويلة ، واعتنيت بهندامي كل الاعتناء وخاطبت صديقي بالهاتف ، فأشار بأن اسبقه .

وتوجهت الى الفندق ، واخترت مائدة في صالة المطعم ـ حسب الاتفاق بيني وبين صديقي ـ وجلست اليها قلقا من الشوق .

ومضيت اعالج صبري بالنظر الى الجالسين في الصالة .

هذا شاب انيق اللباس ، يدخن لفافته ، ويرافق دخانها كأن مهمته في الحياة مرافقة دخانها .

ذلك شيخ بسط امامه على المائدة ورقة يخط عليها ارقاما ، وقد قطب حاجبيه وهو يشرب قهوته دون ن ينتبه اليها .

وهذان رجلان يتساران كانهما جاسوسان تراقبهما اعـين الشرطة .

تلك امرأة امامها زوجها ، وقربهما صبي في الخامسة من عمـره ـ تقريبا ـ هو ابنهما ، ولا شك ، يتناولون الطعام . ولفتت نظري ، بصفة خاصة ، كيفية اكلهما ، فالمرأة تمسك قطعة من اللحم بيدها ، وتنهشـها باسنانها ، ثم تسقط منها قطعة اللحم على الارض ، فتنحني ، وتلتقطها ، وتمسحها بكفها ، وتعود الى نهشها . ولم اتبين وجهها ، ولكنني قدرت قبحه نسبة الى جسمها المترهل ، وصدق تقديري ، فرأيت محياها حين التفتت لتضرب ابنها الذي كان قد تناول قالبا من الزبدة ، وهم بالهرب .

ولم يكن زوجها اكثر تهذيبا منها . اذ ادنى كرسيه من مائدة جاره ، دون ان يستأذنه ورفع رجله ، فوضعها عليها ، ثم خلع حذاءه ونفضه من التراب . وكان النادل يخدم الحاضرين ، ويتغامز واياهم على المرأة وعلى زوجها مشمئزا . ولم يسعني متابعة مآتيهما ، فقد جاء صديقي ، والتفت الى جوانب الصالة وقال :

ـ أسلمت عليها ؟

قلت :

ـ كلا ؟

قال :

ـ هي تلك ، وذاك زوجا وقربها ابنها .

فسألت :

ـ أين هم ؟

فاجاب :

ـ على تلك المائدة

واشار الى المرأة ، صاحبة قطعة اللحم ، والى زوجها صاحب الحذاء .
فابتسمت ، وقلت :
ـ اتمزح ؟
فامسكني من يدي وقال :
ـ تعال :
فاذعنت ، وأنا لا أعي ما فعلت .
وقدمني الى زوجها اولا ، فسلم علي سلاما عاديا .
وعرفها علي ، فمدت يدها ، وسلمت بعدم اهتمام ، دون أن يبدو على وجهها شيء من الاستغراب .
ودعانا زوجها الى الجلوس ، فجلسنا وسكتنا .
واعتبرت من اللياقة ان افتح الحديث ، فسألتهما عن الوطن ، فكان جوابهما مختصرا .
وظلت الجلسة نصف ساعة تقريبا ، وكأننا غرباء عن بعضنا ، ثم استأذنت ، وجاراني صديقي ، وودعتهما ، فلم يكترثا قليلا ولا كثيرا .
فقال صديقي ، لما اصبحنا في الشارع :
ـ كيف وجدتها ؟
فاجبت :
ـ كما هي .
وتركته لئلا تنجلي له حالتي .
لا اراك بحاجة بعد هذا الى ان اشرح لك الخيبة التي صدمت قلبي .
قضيت عشرين سنة وشوقي وقف عليها ، ثم قربت منها فاذا هي فحمة .
لم يكن ليهمني قبح هذه المرأة لو انها أبدت قطرة من بحر حنيني اليها .
ولم يكن ليهمني عدم اكتراثها لو انها بقيت جميلة كما عهدتها .
اما ان تجمع الى قبحها عدم مبالاتها فهذا فوق ما يحتمل .
ولا تكرهوا شيئا .
ان رؤيتي لها شفت الجرح الذي كان يعذبني دون ان اشعر .
ان مشاهدتي لها كما هي ، اطفأت الجمرة التي كانت تأكل حياتي .

لقد اصبحت اجد نفسي صغيرا حقيرا بعد خيبتي المرة

وافضيت ، بعد زيارتها ، الى ذات النتيجة التي كان يدفعني اليها خيـــالي ٠

كنت لا اقرب من الحب حرصا على حبها ، وكنت اعتبر الزواج من غيرها امتهانا لذكراها ٠

وانا اليوم اكره الزواج من خيبة املي فيها ٠

أعرفت الآن لماذا آثرت العزوبة ؟

فَتَاةُ الشُّرفَة

كان من عادته ان يراها ، كل يوم ، في طريق عودته من عمله الى بيته ، واقفة على شرفة دارها ، تتأمل الرائحين والغادين بلا مبالاة ٠

وكان يرفع نظره اليها عندما يطل من منعطف الشارع ، ولا يحوله عنها الى ان يغيب في المنعطف الاخر ، ملتفتا الى ورائه بعد ان يصل الى قبالة شرفتها ٠٠

وقد تعود رؤيتها ، بحيث اصبح يشعر انه ينقصه شيء اذا مر في احد الايام ، فلم يرها ٠٠

وتعودت ، هي ، على مايظهر ، رؤيته ، فكانت تقف الى شرفتها في الميعاد الذي يمر به ، ولا تغيب الا في الايام الممطرة ٠ ومن يدري ؟ فقد تكون كذلك واقفة خلف الزجاج ، في الباب الذي يؤدي الى الشرفة ، تنتظـــر مروره ٠٠

وكان قد مر على رؤيته لها ، لاول مرة ، مايقارب ثلاثة اشهر ، وهو لا يزال يذكر اليوم الاول الذي شاهدها فيه على الشرفة ، فقد بهره جمالها، وفتنته نظرتها ، على الرغم من ان أقل مدى بينهما كان يزيد عن خمسة امتار ، فهو في الرصيف ٠ وهي في شرفة الطابق الاول ٠

واحس في الايام التي تلت ذلك اليوم ، ان نظراتها اليه حين يطل من البعيد ، فيها قبس من العطف والحنان والحب ٠٠ وحدثته نفسه بان يسأل عنها جيرانها ، ولكنه خاف ان يصطدم بما يهدم احلامه البريئة ـ خاف ان تكون امرأة متزوجة ، وان يكن قدّر ان الارجح ان لاتكونها ، فهي لا تبرح في ربيع عمرها ٠ خاف أن تكون مخطوبة وأن تكون الساعة التي يعود فيها من عمله الى بيته ، هي الفترة التي تقف في انتظار خطيبها ٠ خاف ان ينهار صرح السعادة التي يشعر بها وهو يبصرها في مكانها من الشرفة ٠ وقنع بأن يراها هكذا ، وان يتمثلها كما شاء له خياله ، وان يطلق لاوهامه المجال ،

تسرح فيه كما يريده ولهذا قرر ان لا يسأل عنها •

وسارت حياته على هذه الدواليب الرتيبة ، يستعجل الساعات ليترك عمله – لا ضجرا منه – بل ليتاح له رؤية «فتاة الشرفة» كما كان يسميها بينه وبين نفسه •

كانت اتعس الايام عنده – الايام التي ينهمر فيها المطر لانه كان يحرم من مشاهدتها •

أما في ايام العطلة ، فكان يمر في نفس الميعاد ، فتكون مكانها ، وكأنها تنتظره •

رضي الفتى بهذه السعادة التي خلقها لنفسه ، ولم يبح بها حتى لاعز اصدقائه خوفا من ان يسخروا من هذا الحب الغريب •• وكان يتساءل ، بين الحين والحين : وما يكون شعورها نحوي ؟ اتراها تعرف انها اصبحت هدف حياتي ؟ اتراها تدرك انها شغلت من تفكيري ما لم تشغله فتاة قبلها ؟ اتراها تنتظر رؤيتي في الموعد الذي أمر به تحت شرفتها ؟ ام هي تتلهى بهذه العاطفة – عاطفتي – كما يتلهى الطفل بلعبة من اللعب التي يستطيع تحطيمها في اية ساعة اراد ؟

وعاد الى نفسه يعالجها ليقنعها بوجوب السؤال عن هذه الفتاة ، وعن حياتها • وعادت نفسه لتحمله على الرضى بهذا الواقع الذي هيأته له الاقدار •

وتغلب أخيرا على نفسه فاقنعها بان السؤال عن حياة « فتاة الشرفة » لن يهدم شيئا من آماله ، وما يضره ان يظل يحبها هذا الحب الطاهر الغريب البعيد اذا كانت متزوجة او مخطوبة او مشغولة القلب بحبيب •

وقرر اخيرا ان يستفرص اول سانحة تلوح له لسؤال احد الجيران عنها • ورأى ان افضل وسيلة هو ان يتقدم من احدى العجائز اللواتي يقفن عادة على ابواب بيوتهن ، لسؤالها ، بصورة لا تفشي غايته •

وابت الاقدار الا ان تسبقه الى مـــا اراد ، والا ان تخفف عنه عبء السؤال ، فقد حدث ما لم يكن في حسبانه : وقع الامر الذي لم يكن يقدر وقوعـــه !•

اطل ، في يوم ، من المنعطف المعتاد ، وتوجهت عيناه ، كعادته ، الى شرفتها من البعيد ، فاذا به يرى – ويا لهول ما يرى رجلا الى جانبها ، ويشعر ان قلبه يزداد خفقانه كانه يريد ان يطير من شبكات اضلاعه •

وحدق الى الشرفة : ان عينه لا تكذب عليه : هي هي في مكانها ، والى جانبها رجل يتأمل فيها •

واحس الفتى ان الارض تميد تحت قدميه ، وعاد من جديد ، الى

التحديق في الشرفة ، وكان قد اقترب منها .

ما في الامر شك : ان فتاة الشرفة تتحدث الى رفيقها ، وتبتسم لـه ابتسامة فيها من المعاني ، الشيء الكثير ..

وكان قد اصبح بينه وبين الشرفة بضع خطوات ، فقال في نفسه : اذا تاملت في كعادتها لم يكن من مجال للحنق عليها ، وظل يتأمل فيها ، فحولت هي وجهها عن رفيقها في الشرفة ، ونظرت الى الفتى السائر في الشارع نظرة عابرة كأنها تلمحه عفوا .

واظلمت الدنيا في عين الفتى ، واحس كأن نظاما في الوجود يتعطل ، وان بناية الامل التي تعب ثلاثة اشهر على تزويقها ، تنهار دفعة واحدة عليه فتهشم انقاضها حياته . وتابع سيره ، والتفت الى الوراء قبل ان يقطـع المنعطف الآخر ، فرآها تنظر الى رفيقها مصغية الى حديثه .

وتوقف الفتى بعد أن غابت الشرفة عن عينيه ، توقف قليلا ، وهم بالرجوع ، وهو يرتجف من الغضب ، وعادت نفسه تحدثه بان كرامته قد أهينت وان من حقه ان يثأر لها ، واي تثريب عليه اذا وقف تحت الشرفة ، والقى على سمع الفتاة رأيه فيها ، بعد ان خانته هذه الخيانة الكبرى ، ووقفت الى جانب شخص آخر تنظر اليه وتتحدث ؟ واي لوم عليه اذا شملت اهانته هذا الرجل الواقف قربها ؟ اليس هو شريكها في هذه الخيانة ؟ وبأي حق يقف قربها ، ويتحدث اليها ؟ ومن هو ليفعل ذلك ؟ بأي حق يحاول هذا الرجل ان يسلبه فتاته ، وقد انقضى عليه ثلاثة اشهر وهو يمر كل يوم تحت شرفتها ويتطلع اليها ؟.

وأحس بخالجة من الكراهة لهذا الرجل ، وتمنى لو تسنى له ان يصفعه او يسبه . فمن يكون ؟ اهو نسيب لها ؟ هبه كذلك ، الم يجد للحديث اليها الا الموعد الذي يمر فيه ؟ اما كان في وسعه ان ينتظر دقائق معدودات ريثما يجتاز المنعطف ؟ من يكون هذا الرجل ؟ اهو حبيبها ؟ كيف ترضى به وقد انقضى على الفتى ثلاثة اشهر وهو يفتكر بها ، ولا يفتكر بسواها ؟ كيف تخطبه ؟ كيف سمح لها قلبها ان تخطبه دون ان تحفل بشعوره هو ـ هو الذي يمر كل يوم ليراها ؟ اهو صديق لها جاء لزيارتها ؟ وكيف تصادق رجلا ، وتتركه هو ـ هو الذي اخلص الحب لها كما لم يخلصه قبلها لفتاة ؟ اليس عملها هذا تلاعبا بعواطفه ؟ اليس تصرفها هذا امتهانا لشعوره ؟ كيف اجازت لنفسها ان تعمد الى خيانة حبه هذه الخيانة التي لا يمكن ان يغفرها لها ؟

ورجع ادراجه ، وقد حاول ان ينفذ ما كانت تحدثه به نفسه ، وثارت

في قلبه الغيرة ثورة لاهبة لافحة ، ثم عاد من جديد ، فتوقف قليلا ، واستند الى الجدار ، وراجع موقفه الغريب هذا ، ورأى أن يسرع في خطواته الى داره ، فعودته اليها ، الى رؤيتها مع رفيقها في الشرفة ستزيد نيران وجده اشتعالا ، وستزيد بركان غيرته احتداما ٠

واسرع في المسير ، قبل ان يطرأ تغيير على فكرته ٠ ووصل الى داره ، وتوجه توا الى غرفته فاغلق بابها عليه واستلقى على سريره ٠

وشعر بانياب التعاسة تعضه ، واحس ان الارض على رحبها تضيق به وندم على أخلاصه لفتاة الشرفة التي لم تراع عاطفته ولن ترعى شعوره ،ولم تقابل احساسه بمثله ، وانما كانت تهزأ به ٠

لقد كانت فتاة الشرفة اذن كاذبة في نظراتها اليه ٠ كان قلبه مخدوعا بما تمثله فيها من وفاء ٠ كانت نفسه تهيم في ضلال وهي تبني له صروح السعادة الخيالية ٠

واستعاد الفتى ، وهو يتقلب على سريره مراحل حياته ، فآلمه ان تكون جهوده ومساعيه في ميدان الكفاح لم تتكلل بما يستحق من ثمرات ، وان تكون رهافة حسه قد جرت عليه من المصاعب ما جرت ٠

فجلس عن سريره ، والهواجس تتقاذفه ، وفتح النافذة ، وكان الليل قد ولى اغلبه ، وراح يتأمل الافق ، وقد انبثت فيه النجوم كأنها اعين من الخلود تنظر الى اعمال الناس ، وتتغامز عليهم ٠

وبزغ الفجر ، وهو على النافذة ٠

وذهب ، كعادته ، الى عمله ، وقد انهكه السهر والقلق ، ورسمت الغيرة على وجهه خطوطا من الكآبة ٠

ولم يستعجل الساعات في ذلك النهار ٠

ولما حان ميعاد عودته الى بيته ، سلك طريقا غير الطريق الذي يسلكه في الاشهر الثلاثة الاخيرة ٠٠

العين بالعين

لم يكن صاحبي ضيق الصدر ، سريع الغضب ، وانما كان من الذين يردون الاساءة بالاساءة ، ويقابلون العبارة الجارحة بمثلها ، وكان شعاره في الحياة « العين بالعين والسن بالسن » ، ولم يكن هو الذي يبدأ • وكثيرا ما كنت الومه ، فلا يحفل بعباراتي ، واحاول اقناعه بان الصفح ينبثق من الخلق العالي ، وان التساهل شيمة النفوس الكريمة ، فيظل على رأيه ، مؤكدا لي ان ما ادعو اليه ميوعة يترفع عنها •

ورأيت اخيرا ان اعفيه من نصحي ، احتفاظا بوداده ، فقد كان من طيبة القلب بحيث تصان صداقته •

وكرت الايـام ••

واضطررت ، مرة ، أن ارافقه الى دار القضاء ، لتأدية شهادة في دعوى مدنية بسيطة •

ودخلنا الردهة ، انتظارا للجلسة لتي كانت قد تأخرت عن ميعادها المضبوط ، لتغيب القاضي في مهمة عاجلة •

وكان ثمة مقعد طويل يتسع لثلاثة اشخاص ، جلس في وسطه رجل ضعيف البنية ، في الاربعين من عمره تقريبا ، ينتظر ، مثلنا ، على ما يظهر ، أحدى الجلسات القضائية •

وقال صديقي :

ـ تعال ، لنستريح في هذا المقعد

وكان الجالس عليه ساهيا ، فاستأذنا منه آملين ، ان يفسح لنـــا موضعا •

ففعل مقطباً حاجبيه ، كأنه تضايق من فعلتنا

وما كدنا نستقر في المقعد ، حتى وقف ، متمتما في كلمات لم نتبين

معناها ، وراح يذرع الردهة بسرعة عصبية ، محركا شفتيه ويديه ، كمن يستعد للشجار ٠

فقال لي رفيقي هامسا :

ـ أليس في موقفه تحديا لنا ؟

فقلت : خافضا صوتي :

ـ دعه وشأنه ٠٠

فقـال :

ـ اذا لم نقفه عند حده ، تمادى في ضلاله ، علينا ان نعيد اهانته الى صدره اذا كانت نيته اهانتنا ٠

وهم بالنهوض ، فمنعته قائلا :

ـ مالنا وله ؟ قد يكون غيظه ناجما عن أسباب تدعو الى الغيظ ، وقد تكون خشونته تنفيسا لهموم ، يتحملها في قرارة نفسه ٠

فقال :

ـ انك تخترع له عذرا يضحك ٠ وكل ما هناك انه فظ ، سيء الطبع ، والقسوة في تعنيفه درس يعيده الى الصواب ٠ ان هذا المقعد ليس ملكه الخاص ليغضب اذا جلسنا عليه ، وهو مهيئا لثلاثة ٠ فما باله وقف عنه ، نافرا من جوارنا ؟

وقطعنا الكلام ، فقد سمعنا باب الردهة ينفتح ، ويدخل منه شخص يبدو ان هذا الذي نتحدث عنه ، كان على موعد معه ، فتقدم منه مصافحا مسلمـا ٠

وسأله القادم فورا :

كيف حال ابنك :

فاجابه :

ـ لا يزال غائبا عن الوعي ، ولا يبرح الاطباء ، منذ ثلاثة ايام ، يبذلون ما في وسعهم ، ولكن جهودهم حتى الان لم تثمر ٠

وتهدج صوته ، ولمحنا دمعتين تنحدران من مآقيه ٠

وتواصل الحديث بينهما ـ وكان لابد لنا أن نسمعه ـ فعلمنا منه أن ابنه المذكور في العاشرة من عمره ، وانه كان واقفا في الطريـــق ، فاذا سيارة افلت « لزامها » ولم يعد سائقها يملك زمامها ، تصعد الى الرصيف ، وتصدمه فتحدث له جراحا بالغة ، نقل على أثرها الى المستشفى ولا يفتأ فيه قيد العلاج ٠

وجاء القاضي ، بعد هنيهة ، فدعينا الى الجلسة ، ثم خرجنا ، ووجهتنا منزلنـــا ٠

وكان صديقي صامتا ٠

فسألته :

ـ مابك ؟

فقال :

ـ اشكر لك انك منعتني من الرد على الرجل ، ان غيظه لم يكن من مزاحمته على المقعد بل من هول المصيبة التي حلت عليه بوحيده ، فلو أني اغلظت له في الخطاب كما كنت اقصد ، وادركت بعد ذلك من امر ما ادركت ، لما غفرت لنفسي تسرعي ٠ اني اعاهدك على أن أكون متساهلا سمحا واسع الصدر ، بعد اليوم ، فهذه الحادثة علمتني في دقائقها المعدودة ، ما لـم تستطع انت ان تعلمني في سنوات ٠٠

ابو البيانات

حنا اليوسف

احمد اليوسف

هذان الاسمان يخصان شخصا واحدا ، وهو يختار منهما الانسب ، فان كان في اجتماع مسيحي ، آثر الاسم الاول ، وان كان في وسط مسلم حمل الثاني ٠

اما اسمه الحقيقي ، فلا يزال سرا من الاسرار ، وكنا نحن ندعوه « ابو البيانات » اذ كان يحمل محفظة كبيرة شبيهة بالتي يحملها أولاد المدارس في الصفوف الابتدائية ، وهي مثقلة بالاوراق ، فاذا حدثته عن النجوم مثلا ، قاطعك وقال :

ـ اسمع ، ان عندي بيانا ظريفا عن النجوم

ثم مد اصابعه الى محفظته ، وسحب منها ورقة مكتوبة بخط يده ، وبدأ بتلاوتها عليك ، وسيان لديه اصغيت ام لم تصغ ، انه لا يتركها متى سحبها ، الا بعد ان ينتهي من قراءتها ، اما موضوع البيان فقد يكون ابعد ما يكون عن النجوم ، ولكنه لا يهتم بذلك اقل اهتمام ٠

وان زارك صديق ليخبرك ان دجاجة وضعت بيضة مربعة ، ابتسم « ابو البيانات » اذا كان حاضرا ، ولم يدعك تهز رأسك دهشة لهـــذه الخارقة ، وقال لك :

ـ ان لدي بيانا ظريفا عن البيض المربع ، اسمع ٠

وانتشل من محفظته ورقة بخط يده ، وشرع بتلاوتها ٠

لقد كان لكل شيء في الوجود بيان ظريف عنده ٠ فاذا سأل القارىء: والبيانات ما اصلها ؟ اجبته : انها مقالات وقصائد منقولة عن كتب او صحف

قديمة ، منها قصيدة ابن الوردي الشهيرة ، ومقالة طريفة لشكيب أرسلان ٠

ولم يكن حضرته يرد بياناته الظريفة الى اصحابها ، بل كان يدعي انه منشؤها او ناظمها ، فان كذبته ـ عينك عينك ـ ارسل الاقسام المغلظة انه هو الذي نظمها او انشأها ٠

٠ ٠ ٠

دخل علي بواب البناية التي كان لي فيها مكتب خاص ، واخبرني ان رجلا يسأل عني ، لم يشأ ان يعلن عن اسمه ، فقلت له :

ـ هاته

ـ ومرت هنيهة ، فاذا على الباب رجل في الستين من عمره تقريبا ، قصير القامة ، محدوب الظهر ، قليلا ، على عينيه نظارتان غامقتا اللون ، علت التجاعيد جبهته ، وبان الشيب في شعره ، وعلى رأسه قبعة صفراء عريضة الرفارف أشبه ما تكون بالقبعة التي يلبسها الكشافة ، وفي قدمه بل في قدميه حذاء كبير جدا ، يستطيع الاسكافي أن يقسمه الى ثلاثة أحذية معتدلة الحجم ، وفي رقبته منديل أحمر اللون ، ترك طرفيه متدليين على صدره ، طقمه واسع فضفاض ، جوانبه متهرئة من الاستعمال ، واكمامه ذات وظائف عديدة ، فهي تستر زنوده ظاهرا ، وهي تنشف وجهه متى غسله ، وتمسح فمه متى أكل ، الى غير ذلك ٠

واذا اضفت الى ما تقدم ، الصرة الكبيرة التي يحملها على ظهره ، والمحفظة العتيقة التي تتدلى من يده ، لم يبق لتحكم عليه بانه زعيم الشحاذين الا أن يطلب احد رأيك فيه ٠

دخل هذا الرجل بعفشه ونفشه علي ، وقال :

ـ أحضرتك فلان ؟

فوقفت احتراما لعمره ، واجبته :

ـ نعم تفضل

فانزل الصرة عن ظهره ، وتقدم من المكتب ، فوضع عليه المحفظة ، وفتحها ، وشرع يقلب بين اوراقها الى أن عثر على ما يبغي ، فقال وهو يقدم الي مغلفا ٠

ـ محسوبك «حنا اليوسف» وهذه رسالة من صديق لك في جمهورية تشيلي ٠

فادنيت منه كرسيا ، جلس عليها ، وفتحت المغلف ، وطالعت ما فيه ، وهو رسالة تقدمة وتوصية للرجل من نسيب لي يتولى رئاسة احـــدى الجمعيات الكبرى في الجمهورية المذكورة ، والرسالة حافلة بعبارات المديح لزائري الكريم ، يأمل مني كاتبها ان اساعد حاملها ٠

فدعوت له بفنجان من القهوة ، ورحبت به كل الترحيب ، وسألته عما استطيع به مساعدته ، فعرض علي امره باختصار قائلا :

ـ لا اخالك تجهل اسرة «اليوسف» في بيروت ، فهي تسير مع اسرة « الاصفر » جنبا لجنب ، ولا تقل عنها جاها وثروة وعراقة ، وقد عرضوا على والدي مرارا رئاسة الوزارة فابى ، وطلبوا منه ان يسمح لي بان اقوم باحدى الوظائف الكبرى ، بصفتي ابنه الاكبر ، فابى كذلك ، وفضل ان يرسلني الى أوروبا حيث لبثت في جامعاتها اعواما عديدة ، رجعت بعدها الى وطني ، وكانت أمي قد انتقلت الى رحمة ربها في غيابي ، تزوج والدي بامرأة اخرى كان وجودها يذكرني بوالدتي ، فهاجرت الى العالم الجديد وما زلت انتقل من بلاد الى بلاد حتى نفذت الالف ليرة التي كانت معي ، فاستقررت في « تشيلي » ، وفتحت محلا تجاريا صغيرا ، واخذت اتقدم في عالم التجارة ، الى ان غدا لي راسمال لا بأس به ، فتزوجت ومنحني الله ثلاثة صبيان ، ولكن القـــدر أراد أن يجربني ، فاحترق محلي التجاري ، ولم يسلم منه عرق واحد من البضاعة ، وفاجأ الموت امرأتي ، ولم يكف ما كنت قد وفرته من المال ، لدفع ربع ما علي من الديون ، غير اني دفعتها ، واستمهلت بقية التجار الى ان ابدأ بالعمل من جديد ، وقد اسعفني المواطنـون في تشيلي بعض الاسعاف ٠٠ اشـاروا علي بان اسـافر الى «الارجنتين» فان الجالية هناك كريمة ، وهي لابد أن تساعدني بعض المساعدة كذلك ، وكان في وسعي انأطلب من أهلي في الوطن ما احتاجه ، على ان الحياء منعني ٠

وكان بين عبارة واخرى ، يتمثل بآية من آيات المسيح ، او بعبارة من عبارات تلاميذه

ثم تساقطت دموعه على خديه ، فاحزنني منظره ، فحاولت ان اخفف بلواه بكلماتي ، فقال :

ـ لست ابكي على المال الذى ذهب مني ، انما ابكي على فراق اطفالي الثلاثة الذين تركتهم برعاية امرأة غريبة لا يهمها اجاعـوا أم شبعوا ٠ تركتهم دون ان اودعهم ، ولو ودعتهم ورأيت تعلقهم بي لما وجدت في نفسي شجاعة على السفر ٠

ومسح دموعه بكمه ، وتابع قائلا :

ـ اعذرني على دموعي ، وارشدني بربك الى كنيسة قريبة ، فاني اريد ان اصلي ، ان الصلاة اكبر تعزية للنفوس الحزينة ، وانا راسخ الاعتقاد ان هذه المصائب التي حلت علي هي قصاص من الله عز وجل ، فقد كنت في مقتبل شبابي على وشك الانخراط في سلك الكهنوت للانصراف الى خدمة المسيح له المجد • بيد ان امورا عديدة لا محل لذكرها الآن حالت دون ذلك • ولولا اطفالي الثلاثة لما ترددت دقيقة واحدة الآن عن الاسراع الى دير من الاديرة النائية ، وتكريس بقية ايامي للخالق الديان

وكانت هيئته قد عادت الى ما كانت عليه سابقا من الطمأنينة ، فعدل محفظته على المكتب أمامي وقال :

ـ ان عندى بيانا ظريفا عن الرهينة ، كتبته وأنا في القطار ، فان احببت ان تسمعه تلوته عليك

فلم اشأ ان أخبره أن وقتي لا يتسع لذلك ، ورأيت من اللياقة مسايرته ، فقلت :

ـ افعل ما بدا لك

فتلا علي صفحة كاملة طعنا بالدنيا الغرور ، وثنا على التعبد ، وكان بين الحين والآخر يتأملني ، ليرى تأثير بيانه ، فأهز رأسي تظاهرا بالاعجاب •

وحان ميعاد الظهر ، فدعوته الى تناول الطعام معي ، فاعتذر قائلا :

ـ ان اكلي مقتصر على الخبز والبصل وهو نذر علي لابد من وفائه

فقلت له بعد صمت قصير :

ـ لقد همني شأنك وسأحدث صديقا لي به ، واتداول واياه في أفضل طريقة لمساعدتك ، فهل تجد من بأس في أن تعود الي غدا في مثل هذه الساعة ؟

فتناول يدي ليقبلها ، فمنعته ، فقال :

ـ اني رهن امرك ، وانا واضع ثقتي كلها بك

• • •

ولم اكن كاذبا فيما قلت ، فقد عزمت على العناية بأمره ، ومن لا يعتني برجل على حافة قبره ، له ثلاثة اطفال يتضورون جوعا ، وقد اصابه ما اصابه من الكوارث ؟

وكنت أنوى ان احدث صديقي « خالد عبدالرزاق » وان اتعاون

واياه على جمع كمية من المال لهذا الرجل القادم من جمهورية تشيلي اتكالا على غيرة المواطنين في هذه الديار ٠

وتوجهت الى حيث يقيم الصديق المذكور ، وما كدت أصل الى منتصف الطريق حتى التقيت به ، فهتف حالما رآني :

ـ ما اعجب عمل الصدف ، اني كنت ذاهبا اليك

فقلت :

ـ لقد تواردت الخواطر بيننا ، فوفرت علي ما بقي من الطريق الى منزلك

وقال لي ونحن ندخل الى مطعم :

ـ زارني البارح رجل مسكين قادم من بلاد بعيدة ليطلب بواسطتي معونة المواطنين ، وفي يده كتاب توصية من قريب لي في « تشيلي » ، وكنت قاصدا اليك لاستشيرك في شأنه

فقلت له :

ـ هو في الستين من عمره تقريبا قصير القامة يحمل صرة ومحفظة ، وعلى رأسه قبعة كشاف ؟

فقاطعني مندهشا :

ـ هو هو كيف عرفته ؟

فعدت الى سؤاله :

ـ واسمه « حنا اليوسف » ، وله ثلاثة صبيان ؟

فحدجني صديقي بنظرة عتاب وقال :

ـ ليس هذا مجال المزاح ، ان اسم الرجل « احمد اليوسف » وله ثلاث بنات ، ولا يمكن ان يكون اسمه « حنا » وهو شيخ من شيوخ الاسلام كما اخبرني ، واغلب كلامه من آيات القرآن ومن احاديث النبي العربي ٠

فادركت اذ ذاك ان وراء الاكمة ما وراءها ـ كما كان يقول اجدادنا ـ وقابلنا الزيارتين ، فرأينا التفاصيل متفقة الا في نواح لا شأن لها ٠

فاسمه هو عندي « حنا » ، وعائلته من بيروت ، وعند صديقي « احمد » واسرته من دمشق

واطفاله صبيان عندي ، وعند صديقي بنات

وكان ينوى ان يكون راهبا كما حدثني ، وكان ينوي ان يكون شيخا كما حدث صديقي

وكلامه لي أغلبه من الانجيل ، وكلامه لصديقي اغلبه من القرآن

فقال لي صديقي بعد هذه المقابلات :

ـ يظهر ان الرجل يعتقد اننا لا نزال متمسكين بالتعصب الديني ، فهو يريد استغلالنا من هذه الوجهة ، فما رأيك ؟

فأجبت :

ـ اترك تدبـيره علي

فسألني :

ـ سيعود ليعرف نتيجة سعيي ، فماذا أفعل ؟

فقـلت :

ـ امتنع عن استقباله

• • •

وجاءني « ابو البيانات » في الميعاد الذى ضربته في اليوم الثاني ، فلم اطلعه على الشكوك التي راودتني ، واخذت اتصفح وجهه بامعان ، فتلوح لي سمات النفاق التي فاتتني رؤيتها في زيارته الاولى وسألني عما فعلت ، وهو يمجد السيد المسيح ، ويدعو لانصاره بطـول العمر ، فاستمهلتــه اسبوعين ، مدعيا ان الصديق الذى كنت أرجو معونته مسـافر ، فرضي على مضض ٠

وهذا التأجيل لم يكن لتعذيبه كما يتبادر الى ذهن القاريء ، بل كان انتظارا لوصول الجواب من نسيبي في « تشيلي » ، اذ ارسلت اليه مكتوبا استوضحه عن حياة الرجل ، واطلب اليه أن يدلني بجميع معلوماته عنه ، وقد طويت الرسالة على رسالة التوصية التي سلمني اياها ٠

وكان قريبي وفيا ، فورد علي جوابه يقول فيه :

١ ـ ان الرجل منتهى ما تصل اليه الشعوذة ، فلا أولاد لـــه ولا محل ولا حريق ٠

٢ ـ ان رسالة التوصية مزورة ، فهو لم يكتبها ، وكل ما هنـالك انه استلم من هذا المنافق رسالة استفهام عن امر لا أهمية له ، فأجابـه النسيب برسالة قلد منها خطها وتوقيعها على ما يظهر ، اما كيف عـرف اننا أنسباء فلا بد ان يكون قد سمع ذلك من احد ٠

٣ ـ لا دين معروف للرجل ، فهو تارة مسيحي ، وتارة اخرى مسلم

٤ ـ لقد ساعده فريق من المواطنين في « تشيلي » مساعدات تكفي ليقضي بقية أيامه هانئا ، وليس من يدري ما فعل بالقيمة المالية التــي اســتلمها ٠

٥ ـ ان الجالية في « تشيلي » تشكر ربها وتحمده على غيابه ، فقد

مل أفرادها من « بياناته الظريفة » التي كان يلقيها على سمع كل من يصغي اليه ٠

هذا ملخص ما جاء في الجواب ، وفيه ـ كما يرى القارىء ـ معلومات لا تشرف صاحبنا أقل تشريف ٠

وقصد الى مكتبي على أثر وصول الرسالة ، فاجلسته على كرسي ، وانتظرت دقائق ، ثم بسطت له جواب نسيبي ، فطالعه ، وبعد أن انتهى منه ، قهقه طويلا ، وقال :

ـ ان نسيبك يظل دائما كما عرفته يحب المزاح ، وينتظر كل مناسبة ليهزل ، ولكنه طيب القلب ، نبيل النفس ، ان عندي بيانا ظريفا عن المزاح ، فاسمعه مني

فامسكت في الحال اصابعه التي كانت قد امتدت الى المحفظة ، وقلت له :

ـ دعني من بيانك الظريف ، واسمع مني بيانا أظرف ، غير مكتوب ، قيل ان لصا وكل احد المحامين للدفاع عنه ، على ان يؤدي له اجرة باهظة اذا برئت ساحته ، وكانت وصية المحامي للسارق ان يجيب على كل سؤال يوجه اليه بكلمة « شللب » ، ولا يغيرها مطلقا

وقيل حان ميعاد المحاكمة ، فسيق اللص الى حضرة القاضي الذي راح يسأله عن اسمه ومحل اقامته وكيفية سطوه على مال غيره ، وراح اللص يردد : شللب ، شللب ، فاضطر القاضي الى الحكم على المتهم باختلال العقل واطلق سبيله ٠

وقبل ذهاب المحامي الى دار اللص ، ليقبض الاجرة ، فكان جواب اللص « شللب ، شللب » فامسكه المحامي من عنقه ، وصاح به :

ـ « شللب ، شللب » على القاضي ، وليس علي

ثم اقتربت من « ابو البيانات » ، وقلت له :

ـ انك تستطيع ان تخدع غيري بتدجيلك ، اما انا فقد واجهني كثيرون مثلك ، فأصبحت أعرف خزعبلاتهم ، ان واجبي أن اسلمك الى دائرة الشرطة لتقتص منك على كذبك وتزويرك ، فان كنت لا أفعل ، فلانك رجل طاعن في السن ، ولكن اذا اتصل بي أنك عمدت الى تزوير أية امضاءة بعد الآن ، فاني أقسم لك بكل مقدس ، اني مرشد في الحال رجال القانون اليك ٠

ولم يكن الرجل ينتظر هذه الحدة ، ولبث لحظات طويلة وهو صامت ، ثم رفع عينيه الي وقال :

ـ طيب ، لن أزور بعد اليوم . اني محتاج الى دريهمات لآكل وأشرب، فماذا أفعل ؟ والمصارفات ؟ مصارفات الطريق من « تشيلي » الى هنا من يدفعهـــا ؟

فسحبت من جيبي عشرة ريالات ، وقلت له :

ـ هاك ، لقد قلت لي في زيارتك الاولى ان اكلك خبز وبصل ، وهذه القيمة تكفيك اسبوعا فاخذ الورقة مني ، وقال :

ـ ان عندي بيانا ظريفا عن الاحسان ، فاسمعه مني

وحاول ان يبسط المحفظة على المكتب ، فسقطت من يده ، فأسرعت لاساعده على جمع ما فيها وما اشد ما كان عجبي حين وجدت بين اوراقـه عدة اعداد من مجلة بذيئة الصور ، سفيهة المقالات ، لا يجرأ احد يحترم نفسه على لمسها ، فهززت رأسي ، وسألته :

ـ اشائب وعائب يا هذا ، الا تستحي على شرفك ؟

فتناول مني الاعداد بسرعة ، وقال :

ـ اي عار في هذا ؟ ان كل شيء مطلوب في الدنيا ، ولا يزال في بقية من شباب ، ان عندي بيانا ظريفا عن الشباب فاسمعه مني

فصحت بـه :

ـ لعنة الله عليك ، لقد كدت تفلق صبري ببياناتك الظريفة

ثم رأيت ان لهجتي كانت شديدة ، ولست بربه لادينه ، فلطفــت صوتي وسألته :

ـ لم تقل لي في اى فندق تقيم .

فأجابني :

ـ ليس ببعيد من هنا . ولا ادري بالضبط اسم الشارع الذى هو فيه ، ولا حاجة لك به ، اني على استعداد لزيارتك كل يوم

ودعني ، وانصرف

ولاح لي خاطر

علام لا اراقبه ، واعلم من امره ما لابد ان يكون كتمه عني ؟

وتركت عملي في المكتب ، وكان قد سبقني مائة خطوة أو أقـل ، ومشيت وراءه كأني جاسوس مكلف بمراقبة جاسوس اخر فيـــه عـلى البلاد خطر .

ولف الى اليمين ، فاذا به « تحت القناطر » وهو شارع فيه مقاهـي يقصدها البحارة فيها فتيات عابثات يساومن على الحب ، ويبعن اشكاله في محلات مخصصة .

والتفت « ابو البيانات » الى الوراء ، كأن نفسه حدثته بان خلفه رقيبا ، فكاد يراني لولا وجود رجل سمين امامي ، ودخل أحد هذه المقاهي ، ووقفت على الباب ريثما جلس الى مائدة ، فدخلت ، وجلست في مكان مستتر عنه ٠

وجاءت عاثرة حسناء ، فجلست قربه ، ومدت يدها الى عنقه فطوقته ، ولبث يناغيها الى أن ملت منه ، فتركته ، فأخذ يناديها فوقفت اذ ذاك ، واقتربت منه وقلت :

ـ دعها ، ان عندى بيانا ظريفا عن النساء العاثرات فاسمعه مني

ولم اعرف ما كان تأثير ظهوري الفجائي عليه ، فقد توجهت توا الى الباب ٠



لابد ان يكون القاريء قد أيقن مثلي ان « ابو البيانات » بعد انكشاف أمره في المقهى لن يعود الي خجلا مني ٠ غير ان الامر حدث بالعكس ، فقد طرق علي الباب في اليوم التالي ، وبادهني بقوله :

ـ لقد ظننت ذلك المقهى من المقاهي التي يقدمون فيها الخبز والبصل ، فدخلت ، ولم يعد في امكاني الخروج منه في الحال

فاستعظمت وقاحته ، وقلت :

لك أن تفعل ما تشاء فما أنا بالوصي عليك

وجلس على الكرسي ، وقال :

ـ اني جئت من بلاد بعيدة ، فان لم تكن نيتك مساعدتي ، افلا تدلني على وسيلة يساعدني بها سواك ؟

فعرفت اذ ذاك ان مرض أخلاقه مرض عضال لا يرجى له شفاء ، فقلت :

ـ من السهل علي ان اقدم لك خمسمائة ريال شهريا ، انما استحي من التبرع بهذه القيمة الزهيدة ، فتأمل هذه المشكلة التي اوقعتني فيها : اني اريد من صميم قلبي موازرتك بمبلغ كبير شهري ، فلا اتمكن والمبلغ الصغير الذى استطيع مساعدتك به ـ خمسمائة ريال ـ لا يليق بك ٠

فلمعت عيناه بالامل ، وقال :

ـ انا راض باية قيمة تتبرع بها لي

فقلت :

ـ اذا رضيت بها أنت ، فأنا غير راض بها ، والمهم أن يكون ضميري مرتاحا ٠

– ان عندي بيانا ظريفا عن التبرع القليل ، فاسمعه مني .

فقلت :

– رافقني الى منزلي ، واتل علي بياناتك كلها ، وخلصني منها دفعة واحدة .

واخذته معي الى حيث اقيم ، فوضع محفظته على الارض ، وشرع يتلو البيان الظريف اثر البيان الظريف وأنا أتظاهر بالاصغاء الى أن فرغ منها ، وقد صرف على قرائتها أكثر من سبع ساعات متوالية .

• • •

ومرت أيام عديدة لم يزرني فيها ، فرجحت انه ذهب ببياناته الى بلاد أخرى ، فتنفست الصعداء ودعيت الى مدينة في الداخل للاشتراك في حفلة أدبية أقامتها الجالية ، وكان بين الحاضرين صديق قديم لي جلس قربي ، فتجاذبنا اطراف الاحاديث ، ووصل الكلام الى الاحسان فقال صديقي :

– لو كنت هنا البارح لرأيت صاحبك « اليوسف »

فسألته بلهفة :

– اى يوسف ؟

فأجاب :

– « حنا اليوسف » ، الرجل القصير ، المتقدم في السن

فعدت الى السؤال :

– وماذا فعلتم به ، بل ماذا فعل بكم ؟

فكان جوابه :

– اطمئن ، لقد اكرمنا وفادته ، وجمعنا له خمسمائة ريال

فضربت كفا على كف كمن اصابته كارثة ، فتابع صديقي قوله :

– ان حفاوتنا به لم تكن لشخصيته ، وقد شفع ببياناته العديدة الطويلة تدينه العميق اذ كان لا يكاد يبرح الكنيسة ، فان برحها لبث في غرفته معظم الوقت وهو راكع يصلي

فاخبرت صديقي المذكور بحقيقة الرجل ، فهز رأسه هزة الاسف ، وقال :

– اذن لست انت الذي ارسلته كما ادعى ؟

• • •

وخفت ان يوالي « ابو البيانات » زياراته الميمونة ، الى مدن الداخل

بصفته « صديقي » فأكون قد ساعدت الضلال من حيث لا أريد ، فنشرت في الصحيفة التي كنت احررها اعلانا احذر المواطنين من هذا الدجال ·

وجاءني بعد اسبوع مواطن يقيم في بلدة صغيرة غير بعيدة عن العاصمة فيها جالية معتبرة ، وقال :

ـ لو نشرت التحذير منذ شهر ، لوفرت علينا ألف ريال · لقد زارنا هذا المواطن مستعملا اسمه « أحمد اليوسف » وقال انه تعلم في الازهر الشريف ، وحضنا على بناء جامع للصلاة ، واعدا ايانا بأن يقف أيامه الباقية على خدمته ، ثم استدر شفقتنا على أولاده في « تشيلي » ، فأخذ منا القيمة التي ذكرتها ·

· · ·

وانقطعت عني اخباره ، سنتين

على ان القدر أبى الا أن يجعله يعترض طريقي ، مرة أخرى لعلها الاخيرة ، فقد تعرفت وأنا في أحد المصايف القريبة على مدير الشرطة فيها ، فشرع يظهر لي رضاه عن الجالية وهي أبعد الجوالي عن ارتكاب المخالفات والجرائم ، ثم ابتسم ابتسامة راضية وقال :

ـ ولقد كدت في الاسبوع الماضي أغير رأيي ، اذ قبضنا على رجل كان يتظاهر بأنه كاهن عربي فقير ، ولما حاولنا أن نستوثق من مهمته بدا لنا كذبه ، ووجدنا بين طيات ثيابه ـ ونحن نفتشه ـ مبلغ خمسة آلاف وستمائة ريال ، قلت اني كدت اغير رأيي في جاليتكم ، اذ ظننته لاول وهلة منكم ، بيد اننا عرفنا من ورقة هويته التي كان يخفيها ، انه يهودي !

فاستفسرت عن شكله ، فوصفه لي ، فاذا هو « ابو البيانات »

ثم سألني :

ـ ألعلك تعرفه ؟

فقلبت شفتي ، ولم يكن هذا الجواب نفيا ولا ايجابا

فقال مدير الشرطة :

وكانت محفظته مليئة بأوراق مخطوطة سأريك اياها ، متى تريد أن ترافقني الى بيتي لتترجمها لي ؟

فأجبت :

ـ في اواخر الاسبوع القادم ·

وكان رجوعي الى العاصمة مساء ذلك اليوم ·

المسافرون

لم يبق من المسافرين العشرين من لم يستثقل ظله ، ويلتفت اليه مرارا التفاتة الامتعاض · وظل ، على الرغم من ذلك ، ماضيا في سماجته فهو يرفع صوته بالغناء ، وكان صوته قبيحا ، وهو يطلب من السائق ان يسرع ولا يخاف ، فلن يحدث الا ما قدر الله ، وهو يروى للجالس قربه نكتة او ما يظنها نكتة بصوت مرتفع ، لنسمعها نحن ركاب السيارة الكبرى جميعا ، ثم يضحك لها طويلا ، وحده ·

ومررنا في طريقنا على بائع فاكهة ، فرغب الى السائق ان يتوقف ، فانصاع على مضض ، وراح صاحبنا يساوم البائع دقائق معدودة ، وعرض عليه ثمنا بخسا ، وعاد فامر السائق ان يتابع السير ، دون ان يشتري شـــيئا ·

ولم يكن شعوري نحوه يختلف عن احاسيس بقية الركاب ، بل لعلني كنت اشد كراهة له من غيري ، فقد كان مقعدي لا يبعد عن مقعده غير صف واحد ، وكنت مضطرا الى سماع عباراته او بالاحرى ثرثرتـه كلها · وحمدت الله ثلاثا على ان المسافة بين دمشق وبيروت لا تستغرق أكثر من ثلاث ساعات ، ثم اتخلص من هذا الرفيق الثقيل ، اذ يمضي كل الى شأنه حال وصولنا الى عاصمة لبنان ·

وبدا لنا مخفر الجمرك بين البلدين ·

وكان لابد لصاحبنا من ان يطلع علينا بنكتة من نكته السمجة ، فلم يخيب املنا ، اذ رفع تذكرة هويته ، ووقف عن مقعده ، وقال وهـــو يضحك :

ــ انظروا الى صورتي ما أجملها !

ولم يرد عليه احد منا

وصعد موظف الجمرك ، وسأل اذا كنا نحمل امتعة جديدة تؤدي

ضريبة ما ، فاجاب اغلبنا بالنفي • وتأمل الموظف في وجوه الركاب ، فرابه ارتباك مسافر ، فتقدم منه ، وسأله :

ـ ماذا تحمل في هذا الكيس ؟

فلم يجب

فاعاد عليه السؤال ، فمد المسافر يده الى جيبه وسحب منه جواز سفر ، فقلبه الموظف وقال :

ـ اني اريد ان اعرف ماذا يضم هذا الكيس

فاجابه الرجل بكلمات غريبة ، استنتج الموظف منها ان المسافر لا يعرف العربية ، فدعاه الى النزول ، بالاشارات ومعه الكيس • وطال انتظارنا ، فنزل السائق متبرما ، وتوجه الى المخفر ليستطلع عن اسباب التأخر ، ثم رجع بعد لحظات ليقول لنا :

ـ ان المسألة طويلة ، على مايظهر ، ففي الكيس اشياء جديدة يجب ان يدفع عليها الرجل الغريب جمركا ، ولكنه لا يفهم عليهم ، فهم يتفاهمون معه بالاشارات ، ولو كان احد يعرف اللغة الايرانية لهان الامر ولانتهت المعاملات بسرعة •

فوقف المسافر الثقيل ، صاحب النكات البائخة وسأل :

ـ ماذا تقول ؟ اللغة الايرانية ؟ انا لها •

وازاح رفيقه عن المقعد ، ونزل بسرعة ، وهو يقول :

ـ لقد لبثت في عاصمة ايران اربع سنوات ، تعلمت اثناءها لغة فارس ، واصبحت فيها « بلبلا » •

فتأملنا ـ نحن المسافرين ـ بعضنا بعضا ، وكأن نظراتنا تؤكد ان الرجل كذاب ، لا يخرج ادعاؤه عن احدى سماجاته وما هي الا دقائق حتى عاد ، ومعه المسافر الايراني يحمل كيسه ، وهما يتحدثان •

وجلس على مقعده قائلا :

ـ كان في كيس الرجل قطعة من القماش الجديد ، هدية الى اقربائه ، ومذ ادركت ادارة الجمرك الحقيقة ، اعفته من دفع الضريبة ، والتفت الى الغريب ، وخاطبه باللغة الايرانية ، وظهر من وجه الرجل ومن لهجة جوابه انه ممتن منه كل الامتنان •

وواصلت المركبة سيرها •

وتبدل شعور الركاب نحو الرفيق الثقيل ، وكانت نظراتهم تتلاقى بين الحين والاخر وكأنهم يقولون من خلالها : « ما من انسان على وجه الارض ـ مهما كان ثقيلا سمجا ـ الا وفيه شيء من النفع للانسانية • »

الزنجيّة

كان يدخل محلنا بين الحين والاخر ، فيبتاع ما يفتقر اليه دون ان يسأل عن الاسعار • وكان في الثلاثين من اعوامه تقريبا ، انيق الملبس يدل حديثه المقتضب على ثقافة واسعة ، يقيم في جوارنا منذ مدة قريبة • وترافقه، اغلب الاحيان زنجية غليظة القسمات ، في مثل عمره ، نحسبها خادمته •

وما زلنا نجهل من امره كل شيء ، حتى جاءتنا جارة ثرثارة ، فاخبرتنا فيما اخبرتنا ، ان المرأة السوداء التي ترافقه ليست خادمته ، بل زوجته ، فاستبعدنا الخبر ، وقدرنا انه اختلاق من أحد الحساد ، اساءة الى سمعته •

واصبحنا نراقبه عندما يأتي ليشتري ، كما لم نفعل من قبل ، فانتبهنا الى انه يستمزج رأي الزنجية فيما يود ان يحرزه ، فان اظهرت رضاها ، اشترى ، والا فلا •

وظللنا نستغرب ان يكون شاب مثله ، قد تزوج عبدة مثلها •

ولم تستطع الادلة التي شهدناها ، فيما بعد ، ان تقنعنا ، فقد كان يخرج واياها في ايام الاعياد ، ويعودان مساء ، وهو الذي يفتح لها باب السيارة لتدخل اليها وتخرج منها ، لا يحفل بنظرات الفضوليين الذين يتعجبون لحالتهما •

وهممت ، مرة بان اسأله عنها ، غير اني استحييت • فما يهمني منها ومنه ؟ وعلام اعرض نفسي للخجل ، اذا لم يكن راغبا في اطلاعي على سره ؟•

وفجأة ، اصبحنا نشاهده وحده

واختفت الزنجية عن الابصار

فعاودتنا الشكوك في قضية زواجه منها ، ورجحنا انها كانت خادمة ، ثم استغنى عنها ، وانتهى الامر •

ومرت اسابيع قليلة ، فلم نعد نراه

وعلمنا انه رحل الى مكان بعيد عنا ، قريب من الدائرة الرسمية التي يتولى رئاستها ٠

ونسيناه ٠٠

وانقضت خمس سنوات على الحادث ٠٠

وسافرت ، يوما ، الى مدينة في الداخل ٠٠ يرافقني صديق لي ٠

ودخلنا الى مطعم صغير نأكل ٠

واتجهت الى مغسلة قرب المطبخ لانظف يدي ٠٠

واطللت ، من غير قصد ، على المرأة التي كانت تنشف الصحون ، فاذا هي كأنها الزنجية التي سبق ذكرها ٠٠

وحاولت ان اتبين قسماتها ، فلم يتسن لي ، اذ لم تكن تواجهني ٠

وعدت الى حيث رفيقي على المائدة ، ورويت له قصة المرأة باختصار ، فضحك ، وقال :

ــ لا يمكن ان تكون هي ٠ كل امرأة سوداء تشبه كل امرأة سوداء ٠

فقلت :

ــ سأذهب اليها لاسألها ٠٠

فقـال :

ــ دعها ، مالك ولها ؟

قلت :

ــ سأزيل من نفسي هذه الريبة

وتحولت رأسا الى المطبخ ، فاستأذنتها في الدخول ، وقلت بعد ان حييتهـــا :

ــ الا تذكرين اننا كنا جيرانا ؟

فقالت وهي تتأمل في :

ــ الست انت صاحب المحل الذي كنا نشتري منه ؟

أجبت :

ــ بلى ، كيف افضيت الى هنا ؟

فصمتت بريهة ، وأبصرت دمعتين تسترسلان من مآقيها ٠

ودعتني الى الجلوس على مقعد خشب ٠٠

وسردت علي جوانب من حياتها ،

قالت :

ــ عرفته قبل ان نكون في جوارك ، وكنت خادمة عنده ، لبثت اؤدي له مهام الخدمة ثلاثة اعوام ، وكنت راضية كل الرضى عن عملي ، فهو

يعاملني باحترام ولطف ، ويطلق يدي في البيت اديره كما اشاء ، ويؤدي لي راتبا شهريا لا أطمع بأكثر منه • واذا به في أحد الايام ، يعرض علي الاقتران به • فحسبت كلامه مداعبة • غير انه افهمني انه جاد كل الجد • فامتنعت ، على أمل ان يثوب الى صوابه فيعدل ، ولكنه عاد في اليوم الثاني وفيما تلاه الى طلبه ملحا ، فأشرت عليه بان يستشير اقاربه واصحابه ، قبل ان يقدم على هذه الخطوة الحاسمة ، فاجابني آن الاصدقاء لا شأن لهم فيما يعزم عليه ، وان ليس له من اقارب غير شقيق يقيم بعيدا جدا ، وما في الوقت فسحة لاستشارته • ومهما كان ، فانه مصمم على الزواج بي• ولم ار ندحة ، ازاء الحاحه المتواصل من القبول ، وان كان شعوري نحوه هو شعور العبد نحو سيده •

وجرى الزفاف ••

وكانت حفلة بسيطة ، اقتصرت علينا وعلى القاضي وعلى الشهود •

وأدركت ، ونحن عائدان الى البيت اني تسرعت ، وكان من الواجب علي ان أبقى مصرة على الرفض ، فدنياه غير دنياي ، ومركزه في المجتمع غير مركزي ، والانسجام بيننا مستحيل ، وهو بفعلته هذه سيغدو اهزوءة الضاحكين • وراجعت صلاتي به ، فلم اجد اي مبرر لاقدامه على الزواج بي•

اذلك منه تقدير لما أؤديه من خدمات ؟

كان في امكانه ان يكافئني ببدرة من المال يقدمها لي ، ولم يكن بالرجل البخيل فهداياه السابقة لي كانت متوالية •

اكان زواجه بي هربا من وحدة نفسية ؟

كان في وسعه أن يقترن بافضل فتاة بيضاء ، فهو كما عرفته ، منتهى الوسامة والاناقة والثقافة • وما من امرأة الا تتمنى ان يكون زوجها مثله فكيف أكون ، انا ، انا المرأة السوداء القبيحة قرينته ؟

لا شك ان صنيعه نوبة جنون ، وسيعود الى رشده في أي وقت ويقدر هول ما فعل ، فيكون قبولي انا في عرفه جريمة تفوق جريمته هو

ان هذه الساعة لابد آتية

فما موقفي منه ، وما موقفه مني ؟

وكانت هذه الهواجس لا تفارقني ، وتجعل حياتي اشبه ما تكون بالجحيم • ولم أكن اطلعه على ما يخطر في بالي ، ابقاء على صفاء نفسه • اما هو فكانت السعادة تتجلى من حركاته وسكناته ، وكأنه بلغ اسمى ما يطمح اليه •

وكانت معاملته اللطيفة ، تزيد في قلقي وتحيلني كأني على شفا بركان

لا يلبث ان ينفجر ويقذف بالحمم . وكثيرا ما كان يخيل الي ان كلماته حجاب يستتر به ندمه .

وما برحت اتقلب على هذا الجمر من العذاب سنة كاملة ، الى ان فرجها الله علي .

فقاطعتها قائلا :

ـ فهجرك ..

قالت :

ـ كلا ، بل انا التي هجرته فغادرت دنيـــاه ، ورضيت بدنياي ، واحسست اذ ذاك بمتعة الاطمئنان ، وتركت له قبل رحيلي رسالة اشرح له فيها حالتي . وتنسمت اخباره بعد ان هجرته ، فعرفت انه استقال من وظيفته العالية ، وصفى مصالحه ، وسافر الى الخارج يائسا من العثور علي . وانا الان راضية براحة الضمير ، وان كنت اعيش بالذكريات ، ذكريات الجحيم الذي كنت فيه ، فهل تراني اتيت الا ما يجب علي ؟

ثم لاذت بالصمت ثواني قليلة ، وتابعت :

ـ ارجوك ان تعذرني : ان صاحب المطعم رجل طيب ، ولكن ليس من الانصاف ان استغل طيبة قلبه ، وعلي ان أستمر في غسل الصحون .

وعدت الى حيث كان صديقي على المائدة يتسلى بمطالعة جريدة .

اَصحاب المداس

للطفولة حوادث تظل منقوشة على صفحات النفس الى آخر العمر ، وهي ـ ككل ما يمر به الانسان ـ كثيرا ما تكون حافلة بالعبر التي تنطوي على اعم الفوائد ·

كنت دون العاشرة حين اشتريت من مكتبة المدرسة التي اتعلم فيها ، كتاب « الجغرافيا » عملا بامر الاستاذ الذي طلب منا ـ من تلامذة الصف الثاني ـ ان نستعد لاضافة هذا الباب الجديد ـ علم تقسيم الارض ـ الى بقية العلوم التي نتلقنها · وكان سروري عظيما لحصولي على هذا الكتاب ، فهو مع قلة عدد صفحاته ، طويل عريض مطبوع طبعا متقنا ، بالالوان الزاهية المختلفة ، على غلافه خارطة الارض ، وفي متنه خوارط القارات الخمس مجملة ، ثم بلدان العالم مفصلة ·

كنت اتناول هذا الكتاب ، بعد الفراغ من حفظ دروسي ، فاتصفحه متهيئا لاستلام الجائزة الاولى في الجغرافيا ، متى فرجها الله على استاذنا ، فعمل على املاء ادمغتنا بامثولاتها ·

الحادثة التي اقصها تبدأ هنا :

السهرة عندنا في البيت ، والمدعوون فريق من الرجال تتراوح اعمارهم بين الخمسين والسبعين ، وغرغرة « النراجيل » متتابعة متناسقة ، وانا جالس بين هؤلاء الشيوخ ، بصفتي أكبر اخوتي سنا ، وللكبير بين الاخوة في بلادنا ، امتيازات ، منها انه يستطيع ان يشـــهد السهرات ، بعض الاحيان ، ليتمرس في مراتب الرجولة ، فادارة البيت ستفضى اليه في المستقبل · وجاء جدي ، وهو يسكن في شقة منفصلة من الدار ، فوسعت له مكانا ، فجلس الى جانبي ، وما كاد يستقر به المقام ، حتى لفتت نظره لمعة الالوانفي كتابي آنف الذكر ، فسألني :

ـ ما هذا ؟
اجبت :
ـ هو كتاب جغرافيا
فقال :
ـ ومن هو جغرافيا ؟
فابتسمت على رغم مني ، وقلت :
ـ ان الجغرافيا ليس انسان له لحم وعظم ، بل هو علم نعين بواسطته البلدان والامكنة ٠
فاهتم لكلامي ، وتناول الكتاب من يدي ، فقلب صفحاته على عجل ثم طواه واعاده الي وهو يقول مشيرا الى صورة الغلاف :
ـ وما هذه الدائرة الملونة ؟
فأجبت :
ـ هي الارض : فهذه اوروبا ، وهذه آسيا ، وهذا البحر ٠
وكانت نظراته تتبـع انتقال اصبعي من موضع الى آخر ، فأراد أن يمضي في الاستفسار ، فسألني ؟ ٠
ـ وهذه الدائرة الاخرى الى جانب الاولى ، ما معناها ؟
فقلت :
بما ان الارض مدورة ، فانهم يضطرون الى تصوير كل جانب من جانبيها ، على حدة ٠
فصاح بي :
ـ ما تقول ؟
فاعدت عليه عبارتي
فتجلى على وجهه الغضب ، وقال :
ـ ومن اخبرك ان الارض مدورة ؟
فاجبت :
ـ المعلم
فقال ، وقد رقص شارباه من الحنق :
ـ كذب وألف كذب ، ان الارض مسطحة كالكف
فحاولت ان اقنعه بالادلة التي تلقنتها في المدرسة ، عن كرويتها ، فكان يهز رأسه ، هزة الانكار ، ويهوي على الذين يعلمونني هذه الخرافات باللعنة اثر اللعنة ٠
واسترعى جدالنا ، انتباه بعض الحاضرين ، ورأى جدي ـ رحمه الله ـ

اني اكاد اتغلب عليه بالبراهين •• وخاف ان ينخذل امامها ، فاستنجد بوالدي ، وقال له :

ـ انصح لك ان تخرجه من المدرسة التي يعلمونه فيها هـــذه الخزعبلات التي هي الكفر بعينه •

وكان والدي يصغي الى الحوار ، فأراد ان يخفف من غيظ جـدي ، فسأله :

ـ ما رأيك أنت في الارض ؟

فاجاب :

ـ مسطحة كالكف

فقاطعته بقولي :

ـ بل مدورة كالبرتقالة •

فاشار الي والدي اشارة استرضاء خفية ، وقال :

ـ اسكت يا ولد ، اتعرف انت اكثر من جدك ؟ ان الارض كما يؤكد هو ، لا كما تزعم أنت •

ثم اردف بعد صمت قصير :

ـ قم الى غرفة النوم ، فقد انتهت مهمتك هنا •

فاذعنت للامر •

وعاد الي والدي بعد دقائق ، وهمس في اذني :

ـ لا تعاند جدك ، انه رجل كبير السن ، وعلينا ان نحترمه •

فقلت :

ـ الارض كروية الشكل ، وهو يجادلني •••

فقاطعني قائلا :

ـ هي كما علموك في المدرسة ، فاحفظ دروسك جيدا •

ورجع الى حيث كان •

على اني لم أرض بهذه الترضية ، فارتديت ثيابي على الاثر ، واسترقت الخطا الى قاعة السهرة ، فوقفت بعيدا عن الباب ، مواجها جدي ، وما زلت واقفا الى ان حانت منه التفاتة الي ، فرفعت يدي وضممت اصابعي ، كمن يقبض على شيء مستدير ، فعرف انى اتحداه ، فهم بالجلوس ، فاسرعت الى الفراش ، وتغلغلت فيه ، وغطيت رأسي ، وانتظرت الضربة ، بيد انها لم تأت ، والحمد لله •

ومضت على هذه الحادثة سنوات ، نضج أثناءها شعوري ، فندمت أعمق الندم على معاندة جدي ، لا سيما وقد ابصرت دموعه ـ وهو شـيخ

كبير – تنهل من مآقيه يوم ودعني ، قبل سفري الى العالم الجديد ، فاغتنمت الفرصة ، وهو يمسكني ولا يريد افلاتي ، فاستغفرته عن كروية الارض ، فقال لي ودموعه لا تزال تبلل وجهي :

– غفر الله لك ، وسهل أمرك ·

لهذه القصة بقية ، سأسردها ايها القارىء فيما بعد ، فاصغ الآن الى السؤال الذي اعرضه عليك :

اننا نستصغر اليوم ، عقول هؤلاء الاسلاف الابرار ، ونهزأ ببساطة مداركهم ، ونقابل بين ما اصبحنا نعرفه وما كانوا يجهلونه ، فيروعنا البون الشاسع ، ولكن ، اترانا اسعد منهم حالا ؟

نحن نعيش اليوم ، وكأننا نعيش فوق جمر ، فالسرعة تعكر صفاءنا ، والهموم – هموم الكدح – تجرعنا من مستنقعاتها ، كؤوسا تليها كؤوس ، والمال – حب المال – يكبلنا بالاغلال الثقيلة ، ويقتل فينا بقية الشعور الحي ·

كان اسلافنا يسعون وراء الفلس كما نسعى نحن ، انما سعيهم كان مقيدا بشروط الشهامة ·

كان القسم بالذقن مقدسا ، فكان للعهد قيمته ، اما في عصرنا هذا فالصكوك نفسها يعتورها الشك ، والضمانات الرسمية غير مضمونة ·

كان واحدهم يصل الى الكهولة ، فلا يعصي امرا من أوامر والديه ، فكانت الاسرة متماسكة الدعائم ، تهيمن عليها الادارة الموحدة المفيدة ·

اما اليوم ، فهل لك ان ترشدني الى صبي لا يضحك من ابويه ؟ هل لك ان ترشدني الى فتى لم يركب رأسه على هواه؟

كان اسلافنا يعتقدون اعتقادا راسخا ، فيبث ايمانهم في نفوسهم الرجاء ، فتسير مآتيهم كلها ضمن حدود الحق ·

فمن منا اليوم لم تزعزعه الشكوك ، ومن منا يحجم عن المآثم خوفا من الرحمن ؟

بلغ جدي أو كاد ، المائة من الاعوام وظلت أضراسه وأسنانه تقضم « حلاوة الجوز » ، والصخر الين منها قليلا ، وانتقل الى رحمة ربه ولم يعرف النظارات ·

وانا ، انا حفيده الذي يحصي لك الاميال التي تفصلنا عن القمر ، لابد لي من زيارة الطبيب مرة في الشهر على الاقل ·

وما جدي ، رحمه الله ، مرة ثانية ، استثناء في عالم القدماء ، كانوا جميعا مثله في الايمان بانبساط الارض ، كالكف وكانوا مثله كذلك في القوة والنشاط والحيوية ·

وما انا وحدي المبتلي بالادواء ، فقلما تجد شابا من شبابنا ، الا وقد جرع من العقاقير ما يفتح فرعا لاية صيدلية ·

منذ مدة ، كنت وبعض الاصدقاء نذكر هؤلاء القدماء بالخير ، فتساءل، احدنا عن الكيفية التي كانوا يقضون بها سهراتهم ، فان الهاهم العمل في النهار ، فماذا يلهيهم بعد الفراغ منه ؟ وبما كانوا يتحدثون وهم يجهلون كل شيء في العالم ؟

ان الدنيا ، في رأيهم ، تبدأ في أول بلدتهم ، وتنتهي في آخرها ·

فانبريت للجواب على الصديق ، واعدت عليه ما رواه لي شاهد عيان، عن تلك الايام ·

كانوا يتحدثون في سهراتهم عن حوران ، وعن ايام الحصاد فيها ·

كانوا يتحدثون عما فلحوه وعما زرعوه ·

كانوا يتحدثون عن المأكولات التي التهموها ، وعما ينوون ان يلتهموه·

قال الراوي :

اني واضع لك صورة مصغرة عن سهرة من سهراتهم :

كنا مرة ـ وقد انقضى على تلك السهرة ستة عقود ـ في بيت رجل اسمه « خليل شوفان » ، وكنا نتباحث في افضل طريقة لصنع حدائج الحمير، فقطع علينا الكلام احد الحاضرين ، وهو « نزيه غيت » ، وقال :

ـ يا جماعة الخير ، لقد اشتريت اليوم ـ اجلكم الله ـ مداسا جديدا من « مرشد الناشف » ، واحب ان اعرف رأيكم فيه ·

وتحول الى عتبة الغرفة ، فتناول فردة المداس ، وهـو بهيئته يماثل حصنا من الحصون الحربية ، وقد انبثت في نعله وجوانبه المسامير المقمعة ، بحيث اصبح كالمصفحات الحديثة من ذوات السبعين طنا ، وسلمه الى « حنا الجلا » ، فقلبه هذا رأسا على عقب ، وعقبا على رأس ، وقال :

ـ كم دفعت ثمنه ؟

فأجاب صاحبه :

ـ وعدته بان اقدم له « مدا » من الشعير في البيدر ، وان احلج له سطح الدار في الخريف ·

فقال الجلا :

ـ انه معتدل السعر ، متين الصنعة ، ولكنه خفيف كالريشة ، ومداسي انا ـ انت اكبر قدرا ـ اثقل من هذا بما لا يقاس ·

وراح يشرح الفروق بين الخفيف والثقيل ، وانتهى اخيرا ، فتلطف ،

وقدم المداس الى جاره « يوسف عربش » فتسلمه هذا ، وبعد أن ركله بيديه قال :

– اتسخى عليه ؟ ان جلده مدبوغ بكل عناية ونعله املس ·

وشرع يطري محاسنه ·

ودبت النشوة – نشوة الفرح والاعجاب – في نفس صاحب المداس ، فوزع نظراته على الحاضرين ، بزهو وعظمة ، وهز رأسه لكل كلمة من كلمات صديقه يوسف كأن المداس ابنه ·

وكان الدور قد وصل الى « عساف سركيس » فامسك حضرته حضرة المداس ، فشمه طويلا ، ثم قلب شفته علامة الامتعاض ، وقال :

– ان « الناشف » رجل غشاش ، فقد باعني مداسا لم استطع ان البسه الا عشر سنوات ، فاعرضت منذ زمن عن توصيته على شيء ، ان هذه الصناعة طاعت لابن خالتي « حبيب دنب » فمن لم يصنع عند المذكور مداسا ، لم يعرف ما هي لذة الحياة ·

ثم رماه باحتقار الى الجالس عن يمينه « موسى ابو سير » ، فتناوله باحترام ، وتفحصه مليا وقال :

– ان هذا المداس فيه عيب واحد ، هو ان جلده غير سميك ، والجلد يجب ان يكون سميكا ليمط مع الايام ، فاذا جاء الشتاء – علينا وعليكم بخير – ونزل الثلج ، وتفسخت رجل « نزيه غيث » لم يقدر على لبسه ، والحق انه لولا هذا العيب لكان هذا المداس « خرج المعرض » ·

فعارض هذه الملاحظة الدقيقة جاره جرجس الدواليبي ، وقال :

– ان الفسوخ لا تكبر الرجل ، والمداس الضيق خير دواء للفسوخ لانه يضمها في بعضها ، فلا تتسع ·

وقام سليم نخله من مكانه ، اذ لم يعد يحتمل الانتظار ، وطلب رؤية المداس ، فشد جوانبه باصابعه ثم اعلن رأيه قائلا :

– انا اشارط من يشاء على ان هذا المداس لا يفنى · فقد علمني ابي هذه الطريقة السرية لقياس متانة الجلد وجربتها مرارا ، فكان التوفيق في الحزر من نصيبي دائما ·

قال الراوي :

وهكذا انتقل المداس من يد الى يد فدار الحلقة كلها ، فسمع الثناء الطيب من فريق ، واضطر الى احتمال الانتقاد والتحقير ، من آخرين ، ولم يرجع الى مكانه من العتبة ، الا بعد ان انهكه التعب ، وتبلل بالعرق·

وكان قد حان ميعاد الانصراف ، فودع بعضهم بعضا ، وحملوا

فوانيسهم وانصرفوا .

وقال الراوي

هذه ليلة من لياليهم ، وسأبسط لك – متى اردت – تفصيل ليلة ثانية .



واعود الى المقابلة بيننا وبينهم ، لاستخلص نهاية العبرة

كانوا قديما يقضون الساعات وهم يتجادلون في قيمة حذاء ، ويأوون الى فرشهم ناعمي البال ..

اما نحن – نحن الذين تصلهم اخبار العالم حال حدوثها ، نحن الذين يطالعون الجرائد ، ويتسمعون الى الراديو ، ويشهدون السينما – نحن لا تكاد تمر على اجتماعاتنا ساعة او بعض ساعة حتى يشعر كل منا بالملل من رفيقه ، فيسعى للخلاص من رؤية وجهه ، ثم نأوي الى اسرتنا الوثيرة ، فتتجدد همومنا ونتقلب كأن كوابيس الدنيا على صدورنا لقد خنقتنا المدنية يا صاح ، لاننا لم نعرف استغلال حسناتها .

يخلق الاجتهاد والعلم وسيلة من وسائل الرفاه لنا ، فلا نتناولها من حيث يجب ان نتناولها ، بل نحولها في الحال الى هدف يختلف كل الاختلاف عما قلقت له ، نحولها الى ذريعة لتضييق افق الحياة .

انا لست من دعاة القديم ، اني اعلم ان الحياة تسير الى الامام ، بخطوات سريعة ، وكل من يقصر عنها تتركه دون أن تحفل بشأنه ، ولكني لست كذلك من الراضين عن هذا الاضطراب النفسي الاليم الذي يسمونه « حضارة عصرية » .

اني احن الى الطمأنينة .

اني ارغب في العودة الى ارتشاف محاسن الاخلاق من اسلافنا .

اني ادعو الى طلب الثروة ، ولكن بشرف ..

اني اود التزود بالعلم ، ولكن العلم الذي يقربني من السعادة .

اني أحب التمتع بسائر الاطايب ، ولكن دون أن ادوس رقاب الناس في سبيل الوصول الى الاطايب .

انا لا اشتهي الرجوع الى عهد المداس ..

انما اتمنى أن أهتدي الى الهدوء الذي كان يسيطر على تلك القلوب قلوب اصحاب المداس .

رب هبني راحة الضمير التي كانوا بها ينعمون ـ واجعلني طاهر الوجدان مثلهم ٠

لقد بعنا نحن سلام الشرق بثلاثين من الفضة ٠

اننا تعلقنا باذيال الغرب ، وحاولنا ان نتغذى بما يتغذى به فأعرضنا عن طعامنا ولم نستفد من طعامه ٠

كان في الدنيا رجل واحد لم تغوه الحضارة ـ رجل عاش كما يصفه عميان القلوب على هامش القرن العشرين ٠

ولكن كلمات هذا الرجل هزت مئات الملايين من كارعي « الويسكي والشمبان » ٠

كان هذا الرجل صورة لما كان عليه اسلافنا ، من البساطة ، مضافة اليها حسنات العلم ٠

غاندي ـ الم يصلك خبره ؟

اسكنه الله الجنة ، وعلى اسلافنا ـ اصحاب المداس ـ رحمته الواسعة ٠٠

قصة لم تكتمل

دخل علي في مكتبي شاب انيق المظهر ، بعد ان حياني باحترام ، قال لي :

ـ اتسمح لي بدقائق من وقتك ؟

قلت :

ـ تفضل ..

فقال :

ـ قد يبدو لك امري غريبا ، ولكني سأشرحه لك باختصار

ثم اقترب مني ، وانتشل من جيبه كدسة من الاوراق ، وتابع :

ـ هذه رسالة كنت انوي ان ابعث بها « اليها » غير اني خشيب ان يكون في ارسالها مسؤولية عليها ، فرأيت ان اقدمها اليك ، لتنشرها على صفحات الجريدة التي تحررها ، فلابد لها ان تطالعها .

فسألته :

ـ ما القصة ؟

اجاب :

ـ ستعرفها من مطالعة هذه الاوراق . واني اتركك الان على أن اعود اليك بعد ان تنشرها ووقف وودعني شاكرا .

فبسطت الاوراق ، فاذا فيها ما يلي :

ـ يا فلانة ..

اما وقد انتهى بيننا كل شيء ، فاني ابعث اليك بهذه الرسالة لاجلو لك الاحاسيس التي ساورتني في الاسابيع الاربعة التي عرفتك اثناءها .

ما كدت اراك للمرة الاولى في المعمل الذي كنت تضربين فيه على الآلة الكاتبة ، حتى شعرت بان آفاقا جديدة تتفتح امام روحي ، وبان

الحياة يتبدل معناها في نفسي ، وتركزت نظراتي في وجهك الفتان ، كأن ارادتي قد سلبت مني بمسحة ساحر .

ورنوت انت الي رنوة انطوت على شعور جامد من اللامبالاة .

ولكني ، على الرغم من ذلك ،ادركت ان القدر أراد ان يصل بيني وبينك بوثائق من التفاهم ، وادركت ان نظراتك ستكيف حياتي تكييفا لا يد لي فيه

وهكذا كان

فقد طلبت من مدير المعمل ان ينقلني الى الدائرة التي تعملين فيها ، وقد عرته الدهشة لطلبي ، فهو انحدار في سلم التصنيف ، مع اني كنت مرشحا للصعود ، مكافأة على اجتهادي ودأبي

ولم يعلم مدير المعمل بقصدي ، ولو علم لما رضي بما طلبت وتمت لي السعادة

فها هو مكتبي قبالة مكتبك ، وها انا استطيع ان انظر اليك كما اشاء ، وها انا في وسعي ان اتحدث اليك كما اريد

وبدأ الحديث ، كما يبدأ عادة ، بين اثنين يشتغلان في مكان واحد : اسئلة عن العمل ، واجوبة عليها ثم اخذ يمتد شيئا فشيئا ، الى مواضيع أخرى ، وكنت مثلك احرص كل الحرص على ان لا ينتبه الينا الموظفون حولنا ، فان سدد الينا احدهم نظراته ، تظاهرنا باننا نتكلم عن شؤون لا تخرج عن نطاق الزمالة

واخذت عباراتي تنتقل الى اظهار شعوري نحوك ، فكنت تصغين اليها دون ان يبدو على وجهك أي اثر للتجاوب الفوري ، ولكنك كنت تصغين اليها . وكان هذا يكفيني

وشرعت ، انت ، في غفلة من رفاق العمل تخبرينني عن حياتك وعن حياة ذويك : ما تقوله امك احيانا ، وما تفضي به اليك اختك ، احيانا اخرى ، وما اسرته لك صديقة ، احيانا ثالثة

واخبرتني عما تستحسنين من مباهج اللهو والتسلية ، وعما تختارين من كتب المطالعة الى غير ذلك مما جعلني ادري من امورك جميع مايهمني .

وعرفت انت من مؤدى كلامي اني لم اطلب نقلي الى هذه الدائـرة الا لاكون قربك ، وتأكدت من صدقي ، من خلال ما سمعته من المـدير نفسه ، ومن بقية الموظفين عن امكانياتي في الترقي والنجاح .

لقد كنت الحظ انك تهتمين بي ، غير اني لم ادر ما « نوع » هـذا

الاهتمام على حقيقته ، وان كنت اقدر انه من « النوع » الذي يطمئن اليه خاطري

وما دمت قد وعدتك بان اجلو لك عواطفي ، كما هي ، فاني اصارحك بان تلك اللحظات ـ ولا استطيع ان اسميها الا لحظات ـ التي قضيتها بالقرب منك لم تكن كلها سعادة • كانت تشوبها اللوعة : لقد كنت اشعر بسموم الغيرة تسري في دمائي حين كنت تنظرين الى بقية رفاق العمل ، وكانت هذه الغيرة تصل الى فورتها اللاهبة حين يدعوك المدير الى مكتبه الخاص ليملي عليك رسائل العمل • وأصبحت اكره المدير كرها لا حد له ، وكنت أقول في نفسي : الأنه يقدم اليك في آخر الشهر راتبا ، يباح له ان يدعوك الى مكتبه ساعة يشاء ؟

ولا اخالك الا ذاكرة اني في احدى المرات التي دخلت مكتبه ، ثارت في نفسي براكين الغيرة ، ففتحت الباب ، ولم اعبأ باللافتة التي تطلب ممن يريد الدخول ان يقرع الجرس • اقتحمت الباب ، وانا لا أدري ما افعل ، وادعيت اني اريد سؤاله عن امر ، فرأيته جالسا وراء مكتبه على كرسيه ، ورأيتك انت مستندة بذراعيك الى المكتب ، بعيدة عنه ، وبيدك ورقة تكتبين فيها ما يمليه عليك ، وامتقع وجه المدير لهذه المباغتة التي لم يكن ينتظرها ، وسألني بجفاء عما اريد • فاعتذرت وخرجت • صدقيني ، وقد مضى الآن على ذلك الموقف زمن ، اني لو رأيت منه ما يريب لما تقاعست عن الاقدام على عمل ألام عليه

لقد وصلت غيرتي الى هـذا الحد الذي كاد يصبح جنونا أو اشبه شيء بالجنون •

كنت ارقب جميع حركاتك وسكناتك ، واستطيع الآن ان اقول اذا اردت ، ماذا كنت تصنعين في كل سـاعة من ساعات الاسابيع الاربعـة الماضية •

وكنت أتمنى من صميم فؤادي ، لو ينجلي لي مبلغ شعورك نحوي ، فقد كنت في الايام الاولى « جامدة » جمود الصنم ، تنظرين الي ، كمـا تنظرين الى الاثاث في المكتب وتنصتين الى حديثي ، كما تنصتين الى حديث لا يهمك • كانت تلك الايام صعبة علي ، فقد كانت تتنازعني عاطفتان مختلفتان : كنت اقدر انك تبادلينني الحب المكتوم ، فأحس كأن الدنيا لا تسعني لفرط حبوري ، ثم أعود فاقدر انك لا تحفلين بي ، فاذا أنفاسي تضيق ، واذا بي اوشك ان انفجر بالغضب واليأس • الى ان كان أحد الايام ، وقد انقضى دوام عملك ، فارتديت معطفك ، وهممت بالخروج ،

واطل المدير ، وسألك : هل يمكنك الرجوع الى العمل لانهاء ما لديك من مكاتيب

فاجبته :

ـ سأرى

وعاد هو الى مكتبه ، فتأملتك ، في غفلة منه ، وسألتك بغمزة من عيني ، فاجبتني بغمزة من عينيك

وكانت غمزتي معناها :

ـ اخبريني اذا كنت سترجعين لأبقى في المكتب

وكانت غمزتك معناها :

ـ انتظرني فسأعود

ورجعت انت ، وكنت انا قد اتخذت من تراكم العمل على مكتبي حجة للبقاء بعد ان انصرف فريق من الموظفين وليس في وسعك ان تتمثلي السعادة التي غمرتني اذ ذاك

كانت تلك الغمزة خير مكافأة لي على الساعات العديدة التي قضيتها في الليالي السابقة اتقلب على اشواك القلق ، وانا افكر فيك ·

كانت تلك الرفة السريعة من لحظك تأكيدا لي ، انتظره ، على احر من الجمر ، اياما كثيرة

واضحكي مني ، اذا شئت ، لقد عدت الى بيتي تلك الليلة ، فطلبت من الخادمة ان تأتيني بكأس من المشروب · واستغربت المرأة طلبي ، فلا عهد لها بي اني « اشرب » ، ولم ترني ، وقد مر عليها في داري أكثر من سنة ، اني تناولت مشروبا ما ـ مهما كان ـ ،

وتشجعت في الايام التي تلت ذلك اليوم على الكلام اليك بصراحة

حدثتك عن غرامي ، فابتسمت بسمتك الفتانة التي هي عبقة من زهرة في روضة غناء ، وهي دفقة من نور على المرتقب المنتظر ·

حدثتك ، واصغيت لحديثي

وتفاهمت الروحان

ومرت الايام ، وكنت اقبل على عملي فرحا مسرورا ، الست انت الى جانبي ؟ لم اكن اطمع بأكثر ·

سألتك مرة ـ الا تذكرين ؟

ـ أليس حبنا عقيما ؟

فقلت :

ـ لماذا ؟

قلت :

ـ ألست ترين ان شيئا يقف في طريقنا الى السعادة التي كان من حقنا ان نأملها ؟

فأجبت :

ـ ان ذلك يقف دون تفاهم الاجساد ، اما الارواح فما من قوة على وجه الارض تستطيع ان تقف دون تفاهمها

ثم اردفت

ـ لا تقل « حب عقيم » ، بل قل « قصة لم تكتمل »

فعدت الى سوالك :

ـ وما تكون تتمة هذه القصة ؟

فكان جوابك :

ـ لا ادري ، دع الزمن يكملها فقد تولى اكمال جميع القصص التي تشابهها

وكان اليوم الثاني يوم عيد في المعمل ، فقد احتفل المدير بانقضاء سنة على افتتاح فرع جديد ناجح ودعينا الى حفلة شاي في الردهة الكبرى

وكان جلوسك قربي ، ولم يتسع لنا ان نتحدث فقد كانت الانظار مصوبة الينا

وجلست لتضعي فنجان الشاي مكانه ، فلمست زندك يدي · ولا اعلم اذا كانت حركتك قد صدرت منك عفوا او انها كانت عمدا ، وكل ما اعلمه اني شعرت كأن دفعة من الكهرباء تتغلغل في مفاصلي ، وخفت ان يظهر على وجهي الانفعال ، فاسرعت في الخروج وتبعتني نظراتك تسألني الى اين ؟

واويت الى سريري ، ذلك المساء ، وقد اختلطت أفكاري بفرح لا يتسنى لي تقدير مداه · ورحت اتقلب ، وانا اجاري اندفاع خيالي ، الى ان احظى بقبلة من فمك ، ولم أكن أطمع الا بقبلة

فكيف السبيل الى ذلك ؟

ولاح لي الحل ، بعد تفكير طويل ·

كان من عادتك ان تذهبي الى غرفة الثياب في المعمل ـ كما كنا نسميها ـ قبل ان ينتهي الدوام ،لترتدي معطفك ، فما علي لو تظاهرت باني اريد ان آتي بشيء نسيته أنا في معطفي ، واتوجه اليها ؟

وسهل علي خيالي الامر

ولم استطع ان اغفو تلك الليلة

وكان الصباح ، ورأيت ان ساعاته بطيئة ، فقد كنت انتظر فرصة ذهابك الى غرفة الثياب

وأخيرا توجهت اليها كعادتك ، وتبعتك

وذهلت أنت ، وقد رأيتني ، وتقدمت منك ، فتراجعت • وقلت لك : « قبلة واحدة هذا كل ما أريد »

فاجبت « كلا ، عد من حيث أتيت اذا كنت تريد ان أظل راضية عنك » •

وعدت الى القول : « قبلة واحدة » •

فعدت الى الرفض ، وقد بدا على محياك تصميمك على الرفض

فتوجهت الى الباب قائلا :

ـ لا اريد ان تغتاظي ، فليكن ما شئت

ورجعت الى مكتبي كسيفا حزينا ، اتابع الحسابات المنوطة بي ، عيني ترى الارقام ، وخاطري في دنياك ، وقلت لنفسي ، بعد ان هدأ اضطرابي نوعا ، لقد اسأت بعملك ، وما كان من اللائق ان يصدر منك ما صدر ، بأي حق ، تريد ان تقبلها ؟

ولا اكتمك : اني ندمت أشد الندم ، واستصغرت نفسي ، فلم يكن من الجدير بي ان اهوي بحبي الى هذا الدرك •

وكان اليوم الثاني ، فجئت كعادتك الى المكتب ، وبدأت بعملك ، وتباسطت معي في الحديث دون ان يبدو عليك انك متأثرة أو حانقة كأن شيئا لم يجر • وكنت أخاف ان تكون محاولتي الوقحة قد اثرت عليك • ولكنك كنت كريمة ، فلم تحفلي بها ، ولعلك عرفت انها نزوة جامحة ، لابد ان اندم عليها •

وكرت الايام ، دون ان أستطيع ان اخلو بك دقيقة لاستطلع رأيك الصريح ، فقد كانت الاعمال متراكمة على الموظفين ، ولم يكن أحد منهم يترك عمله

ولم اعد أتمكن من احتمال حالتي ، فقد كنت انت بالقرب مني ، ولا يتسنى لي الحديث معك • وكنت حينما أخلو الى نفسي استعرض نتيجة هذا الحب ، فلا أرى فيه الا العذاب لي ، فما العمل ؟ لم أكن أطيق فراقك ، ولكن نفسي كانت تقول لي كلما فكرت فيك :

ـ وماذا بعد هذا الغرام ؟

فلا أجد جوابا

وفي فترة من فترات القنوط تقدمت من المدير بكتاب استقالة من

العمل • فعجب للامر ، وسألني عن السبب ، فقلت له أني اشعر بتعب في أعصابي » فقال « نعطيك اجازة » فقلت « كلا اريد ان اترك العمل » ، وهذا قرار نهائي مني » ، فلم ير ازاء اصراري الا ان يلبي طلبي

ورجعت الى البيت ، وقد حسبت اني قطعت خيط هذا الحب

ولم يكن الامر كذلك ، فقد لج بي الشوق اليك في اليوم الثاني

ومضيت ادافع الساعات الى ان حان ميعاد انصرافك من العمل ، فانتظرتك في الطريق ، بعيدا عن المعمل ، وما ان ابصرتني حتى تبسمت لي ، ومددت يدك بالسلام ، فسألتك ان كان ثمة من مسؤولية عليك اذا رافقتك ، فافهمتني اني استطيع ان افعل على شرط ان اتركك قبل ان تصلي الى بيتك

ومشينا ، وأنا اتأمل فيك كاني أريد ان أتزود بنظرات أخيرة منك ، ولم يكن في الطريق مجال لابثك ما في قلبي من وجد ، فاقتصرت على الطلب اليك ان تخاطبيني بالهاتف الى بيتي ، وألححت عليك بذلك ، فوعدتني ان تفعلي متى تسنى لك

ثم سألتني عن دوافع استقالتي ، فحاولت ان اغمغم ، ولكن ظهر من حديثك انك قد حزرت السبت

وقلت :

ـ أصبحت داري قريبة

فمددت يدي مودعا ، وظللت واقفا في الطريق الى ان غبت عن أنظاري

لم اترك بيتي في اليوم التالي ، انتظارا لمكالمتك • وكنت بين الحين والآخـر ارفع السماعة وارسم أي رقم كـان ، تأكدا مني بان لا عطل في الآلة

وجاء اليوم الثاني ، وأنا بالقرب من الهاتف لم اترك البيت دقيقة ، واذا بجرسه يرن ، واذا بقلبي يخفق خفقانا سريعا

وكان صوتك ، وعادت الي السعادة دفعة واحدة

وطلبت منك ان تأتي الي ، الى بيتي لانه المكان الوحيد الذي أستطيع ان أراك فيه « على مهل » فوعدتني ان يكون ذلك في اليوم الثاني عنـد الساعة الثالثة بعد الظهر

لا أعتقد انه مرت علي فترة من الغبطة في السنوات الاخيرة توازي تلك الغبطة التي شعرت بها بعد ان وضعت السماعة في مكانها

اذن هي تحبني كما احبها ، والا فما بالها رضيت بزيارتي ؟

هذا ما كنت احدث نفسي به

وطالت الساعات علي من جديد

ورحت اعدها دقائق دقائق الى ان كانت الساعة الثانية والنصف من النهار التالي أي قبل الميعاد الذي ضربته لي ، فرن جرس الهاتف ، وكان صوتك يعلن ان صعوبة لم تكن في الحسبان تحول دون مجيئك ، ووعدت بزيارتي بعد يومين في نفس الساعة

وعرفت انك صادقة

وكان امامي يومان ليحل الموعد ٠ فتركت كل عمل يمكن ان يشغل فكري ، وتفرغت لتجهيز هذه الزيارة ورحت اعد في خاطري ما يجب ان أقوله لك ، وكنت أراجع العبارة عدة مرات الى ان تستقيم لي ، ثم ارتبها في مكانها من بريهات الزيارة ٠

اضحكي علي مرة ثانيــة ، اذا شئت : لقد رتبت لهذه الزيارة في خاطري مساقا رائعا جميلا ، وتمرنت على الطريقة التي يجب ان افتح بها الباب حين تدخلين ، وكيف اسلم عليك ، وكيف اعود الى اغلاق الباب ، وكيف أقودك الى هذا الكرسي ٠

وهيأت جميع العبارات التي يجب ان اقولها لك ، وقدرت مختلف الاجوبة لها

ورددت بيني وبين نفسي « سنخرج من هــذا الاجتمــاع الرائق متفاهمين على جميع الامور التي يتحتم التفاهم عليها »

ورحت ابني قصور السعادة في المستقبل على هذا الاجتماع

ومضيت كعادتي ، اعد الساعات التي تفصلني عن الموعد ٠ ولم يبق بيني وبينه الا نصف ساعة ٠

ورن جرس الهاتف

وكنت انت

فبادرتك بالقول لكي لا أترك لك مجالا للاعتذار :

ـ تعالي ، فاني على انتظارك ، اتتأخرين ؟

فقلت :

ـ مسافة الطريق فقط

ومرت الدقائق

وجئت

ففتحت لك الباب ، وقد اسرع قلبي بدقاته ، ومددت يدي للسلام عليك ، وقدتك الى الكرسي الذي كنت اعددته لك ، فاخترت غيره ٠

وحاولت ان ابدأ الحديث ، كما كنت تمرنت عليه ، فخانتني الكلمات

ولم اتفوه الا بعبارات لا معنى لها
وسألتك اسئلة عادية رتيبة :

ـ ماذا كنت تعملين ؟
ـ ماذا كنت تطالعين ؟
ـ هل رآك احد في الطريق ؟
ـ لماذا لم تأت في الميعاد السابق ؟

اني اعترف بان اسئلتي كانت سخيفة تافهة ولكن ماذا تريدين ؟ لقد ارتج علي ، وانا اراك بالقرب مني .. ونحن وحدنا ..

وخانتني البلاغة التي ليست غريبة عني في مواقف أخرى

ولا اخال الا ان شعورك كان مثل شعوري ، والا فما بال اسئلتك لم تكن تختلف في سخافتها وفي تفاهتها عن اسئلتي ؟ بل ما بال اجوبتك كانت تخرج من فمك مقطعة الاوصال ؟

وشعرت انا ان الجو اصبح منذ استهلال هذا الاجتماع ثقيلا ، وشعرت انت كذلك ، وتمنيت في قرارة نفسي لو لم اكن الححت عليك بالحضور كما تمنيت انت في قرارة نفسك لو لم تكوني حضرت

ولا شك انك قابلت بين الحرارة التي كنت اغلف بها كلماتي وانا القي احاسيس قلبي عليك ورفاق العمل في المكتب ، مغتنما عدم انتباههم وبين البرودة التي ظهرت على كلماتي ، وانا في غرفتي معك ، وحدنا ، فهالك الفرق ، ولم تعرفي الى ماذا تعزين ذلك . وانا كذلك قابلت بين الحيوية التي كانت تبدو على نظراتك الي في المكتب ، وبين هذا الجمود الذي يظهر على نظراتك الآن ، فلم يهلني الفرق ، وعرفت ان هذه الخلوة غير المنتظرة هي التي ثبتت في عينيك وفي حركاتك هذا الجمود

وفي ثورة من ثورات اليأس لتغيير ذلك الجو الثقيل تقدمت منك اريد ان اطبع على فمك قبلة ، فاعترضتني يدك ، وابعدتني من جديد

وزادت هذه المحاولة الفاشلة في ثقالة الجو بدلا من تلطفه ، وحرت ماذا افعل

ثم وجدت انت ان الحل الوحيد هو ان تتركي الغرفة وتخرجي لتعودي من حيث اتيت

ووقفت ، ورافقتك الى الباب وودعتني ، وسألتك :

ـ متى تعودين الى الكلام معي في الهاتف ؟

فاجبت :

ـ غدا أو بعد غد ، متى سمحت لي اعمالي

وعلمت انا ان هذا الاجتماع الفاشل سيضع جدارا من القطيعة بيني وبينك • وقد يكون هذا الوداع آخر مرة اراك

وهكذا انهارت قصور الاماني التي كنت ابنيها على هذا الاجتماع ، وهكذا تهدمت هذه الدنيا من التصورات التي كان خيالي قد رسمها لهذه الجلسة

وشعرت ، وأنا أغلق الباب ، بعد ان غبت عن ناظري اني اغلق الباب على مستقبل بسام كنت أتخيله قبل دقائق معدودة

وعدت الى كرسي ، كما يعود القائد الفاشل الذي كان يعد خطة للنصر فاذا هي تنقلب الى انكسار ذريع • وارتميت عليه فاذا الدموع تطفر من مآقي غضبا عني كاني اضعت كنزا ثمينا بسوء تدبيري

الا ليتني لم الح عليك بالحضور الى بيتي

الا ليتني لم اتصرف هذا التصرف البليد الذي لم يكن لي حيلة في رده ، فقد جاء عفويا

لقد عرفت ، وانا اودعك على الباب ، ان خيبة أملك في لم تقل عن خيبة أملي فيك فقد جئت ، ولا شك ، لتسمعي مني عبارات الوجد التي يلذ للمرأة سماعها ، فلم تسمعي الا عبارات سوقية لا شأن لها

فلان

★ ★ ★

هذه هي الرسالة التي سلمني اياها الشاب الذي ذكرت ، وقد نشرتها بحذافيرها ، ولكن الفتاة لم تحفل بها ، ولم يعد هو ليسألني عن مصيرها •••

دومنكو السكير

كان يصحو اسبوعا ، ويسكر اسبوعا

فان قابلته وهو صاح ، اعجبك حديثه اللطيف ، وتبينت من كلماته سلامة قلبه

وان التقيت به وهو سكران ، قابلتك اغانيه ، وهي مزيج من جميع الالحان الدارجة وغير الدارجة

وفي الحالتين ينزل من نفسك منزلة طيبة

لانه في الحالتين مسكين مسكين

وكان اسمه « دومنكو » من اصل ايطالي ، في الاربعين من اعوامه يسكن وحده في دار صغيرة بعيدة . وتقـــوم على خدمته امرأة عجوز ، جارة له

وكان اهل البلدة وعددهم لا يتجاوز ثلاثة آلاف نسمة يعرفونه اتم المعرفة . متى شاهدوه بادروه بالتحية ، فاذا كان صاحيا رد تحيتهـم برصانة وادب ، فأفضلهم لا يفرق عنه بشيء ، وان كان سكران ، رد عليهم بأغنية تتشابك فيهـا الكلمات ، فان سكت ارتسمت على محيـاه ضحكة ساذجة

وكان الموكلون بحفظ الامن في البلدة ، وهم نفر من الشرطة يرأسهم ضابط ، يتركون له الحبل على الغارب ، فهو لا يوذي احدا

وعبثا حاول بعض اصدقائه ان يردعوه عن ادمان الخمرة

فكان يسألهم :

ـ أبدر مني ما ازعج احدا ؟

فيجيبون بالنفي

فيقول :

ـ ما علي اذن ؟

وأصبح ، لطول ما عهده الناس على حالته تلك ، كانه معهد من معاهد البلدة ، فهم عندما يذكرون المرافق العامة ، كالمدرسة والنادي والكنيسة ، يذكرونه في عدادها

اما مهنته ، فهي الخياطة وكان يتقنها

وعرفته كغيري ، اذ كنت اقيم في تلك البلدة حيث ادير محلا تجاريا

وكنت اغتنم فرصة الاسبوع الذي يسكر فيه ، فلا أراه سائرا في الشارع ، او بكلمة اصح : لا اسمع صوته من البعيد ، وهو يغني حتى ادعوه ، واطلب منه ان يعاونني على تنظيـــف المحل ، فيلبي طلبي .

والحق انه لم يكن يعاونني ، وانما كان يؤدي العمل كله ، وأقف انا لاتفرج فقط

واسلمه المنفضة ، فيزيح الغبار عن البضاعة كلهـا ، ثم يتناول المكنسة ، فيديرها في سائر الاركان دون ان ينفك عن الغناء

ويحين ميعاد الاكل ، فأدعوه ليشاركني في الغذاء ، فيأبى ، ويسير الى بيته

ثم يرجع فيذرع الاسواق القليلة في البلدة ، وينتهي به المطاف الى الساحة العمومية ، فيجلس على احد المقاعد ، الى ان يحين المساء

وهكذا ، حتى ينتهي الاسبوع ، فيصحو ، ويصبح كبقية الناس

وفجأة تغيرت حالته

فامتنع عن السكر ، وامتنع عن تذوق أي نوع من السكر ، مهمـا كان

ومر الاسبوع الذي كان من عادته ان يثمل فيه ، وهو صاح

وانقضت الاسابيع التي تلته وهو صاح

فتعجب اهل البلدة

وسأله الكثيرون عن السبب ، فكان يبتسم ، ولا يجيب

وقال واحد :

— ان صحته لم تعد تساعده على الشراب

وقال ثان :

— ان اوضاعه المالية لا تسمح له بان يضيع نصف وقته دون عمل

وقال ثالث :

— سيرجع في الاسبوع القادم الى الخمرة فادمانه علة لا براء منها

وكرت الاشهر وهو دائم الصحو ، وكادت البلدة تنسى أسابيعه التي يكون فيها سكران

اما السبب الحقيقي في هذا التبدل الغريب الذي أصاب حياته ، فلم يكن يعلمه الا اثنان :

هو ، وانا

وقد كتمته انا عندما رأيت انه هو لا يرغب في ان يطلع اصحابه عليه

وها انا اعلنه بعد ان مر على الحادث أعوام

كان من عادة « دومنكو » ان يستدين مني ، عندما يكون صاحيا ، بعض ما يحتاجه في مهنته ، من ابر وخيطان واسلاك وكشاتبين وغير ذلك، ثم يؤدي ما عليه بعد مدة حينما يدفع له من خاط لهم طقومهم .

وجاءني مرة ، وسألني :

ـ كم هي القيمة التي انا مدين بها ؟

فتحولت الى دفتر كنت ادون فيه تفاصيل الديون باللغة العربية ، وفتحته امامه على الصفحة التي تخصه ، فتأمل فيها مليا ، وقال :

ـ ما أغرب الكتابة العربية !

فقلت :

ـ انها كغيرها لمن يلم بها

فقال :

ـ اين اسمي ؟

فأشرت اليه

فقال :

ـ أهذه كلمة « دومنكو ؟ »

قلت :

ـ اجل

قال :

ـ وهذه الكلمة اللاحقة بها ما هي ؟ اكنيتي ؟

قلت :

ـ كلا انها كلمة سكير

فصمت قليلا ، وعاد الى السؤال :

ـ الكلمتان اذن ؟

فقاطعته قائلا :

ـ « دومنكو » السكير

فلاذ بالصمت من جديد ، ثم سأل :

ـ كيف ؟

قلت مرددا :

ـ « دومنكو » السكير

فقال :

ـ اهذا كل اسمي عندك ؟

فاجبت :

ـ ليس عندي فقط ، بل لدى أهل البلدة جميعا . ان كلمة سكير نابت مناب كنيتك ، وليس من يعرف اسمك الا هكذا

فأخذ يردد وقد ظهرت على وجهه آثار الكآبة :

ـ « دومنكو » السكير ، « دومنكو » السكير

ثم مد يده الى جيبه ، وادى ما عليه قائلا :

ـ امح اسمي من الدفتر ، وخذ مني عهدا باني لن اعود فيما بقي من حياتي الى تناول المسكرات ، اني اعدك ، واعد نفسي بذلك ، وسترى اني أفي بعهدي

ووفى

* * *

فهرست

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤	١٤	العراق	العراك
٨	٩	هو على رأي	هو أعلى رأي
٨	١٥	فليحى	فليحيى
٨	١٦	وليحى	وليحيى
٩	٩	عيـد	عيّد
١٣	٢٧	ليعود	ليعول
١٤	٥	حتى الآن البحث	حتى الآن من البحث
٢٢	١٥	أن أفشل	ان افشاءه
٢٥	٤	فلم يكون	فلم يكن
٣٣	٧	فواده	فؤاده
٣٥	١٦	واكد	وكد
٤٢	٢٠	لأوراق	الاوراق
٥٥	١٢	لتي	التي
٧٦	٧	ليس انسان	ليس انسانا

وزارة الثقافة والإرشاد
مديرية الثقافة العامة

صدرت عن مديرية الثقافة العامة في وزارة الثقافة والارشاد المطبوعات التالية :

	الثمن فلس	الثمن دينار
اولا ـ سلسلة كتب التراث		
١ ـ الدر النقي في علم الموسيقي : للقادري الرفاعي الموصلي وتحقيق الشيخ جلال الحنفي	٥٠	ـ
٢ ـ ديوان عدي بن زيد العبادي : تحقيق وجمع السيد محمد عبدالجبار المعيبد	٣٠٠	ـ
٣ ـ مهذب الروضة الفيحاء في تواريخ النساء لياسين بن خيرالله العمري ـ تحقيق السيد رجاء السامرائي	٣٠٠	ـ
٤ ـ اصحاب بدر : منظومة الشيخ حسين الغلامي تحقيق وشرح الاستاذ محمد رؤوف الغلامي	٣٥٠	ـ
ثانيا ـ سلسلة الكتب المترجمة		
١ ـ الاصطلاحات الموسيقية : تأليف أ٠ كاظم نقله الى العربية عن التركية : ابراهيم الداقوقي	١٠٠	ـ
ملحق ـ١ـ المستدرك على الاصطلاحات الموسيقية : للمؤلف نفسه وتعريب ابراهيم الداقوقي	١٠٠	ـ
٢ ـ رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر نقله الى العربية عن الالمانية الدكتور محمود حسين الامين قدم له وعلق عليه السيد سالم الآلوسي	٢٠٠	ـ

	الثمن
	فلس دينار

ثالثا ـ سلسلة الكتب الحديثة

١ ـ رائد الموسيقى العربية : تأليف عبدالحميد العلوچي	٢٠٠	ـ
٢ ـ معجم الموسيقى العربية : تأليف الدكتور حسين على محفوظ	٢٠٠	ـ
٣ ـ جولة في علوم الموسيقى العربية: تأليف الاستاذ ميخائيل خليل الله ويردي	٥٠	ـ
٤ ـ الحرية : تأليف الاستاذ ابراهيم الخال	١٠٠	ـ
٥ ـ موجز دليل آثار سامراء : اعداد سالم الآلوسي	٥٠	ـ
٦ ـ موجز دليل آثار الكوفة : اعداد سالم الآلوسي	٥٠	ـ
٧ ـ النظام القانوني للمؤسسات العامة والتأميم في القانون العراقي : تأليف الاستاذ حامد مصطفى	٣٥٠	ـ
٨ ـ علي محمود طه ... الشاعر والانسان : تأليف المرحوم الاستاذ أنور المعداوي	٢٠٠	ـ
٩ ـ مؤلفات ابن الجوزي : تأليف عبدالحميد العلوچي	٢٥٠	ـ
١٠ ـ أبو تمام الطائي : تأليف الاستاذ خضر الطائي	١٥٠	ـ
١١ ـ من شعرائنا المنسيين : تأليف الاستاذ عبدالله الجبوري	٢٠٠	ـ
١٢ ـ محمد كرد علي : تأليف الاستاذ جمال الدين الآلوسي	٣٠٠	ـ
١٣ ـ أدباء المؤتمر : للاستاذ عبدالرزاق الهلالي	٢٠٠	ـ
١٤ ـ بدر شاكر السياب : للاستاذ عبدالجبار داود البصري	١٥٠	ـ
١٥ ـ الواقعية في الادب : تأليف الاستاذ عباس خضر	٢٠٠	ـ
١٦ ـ شعراء الواحدة : للاستاذ نعمان ماهر الكنعاني	١٥٠	ـ

رابعا ـ سلسلة الثقافة العامة

١ ـ المواسم الادبية عند العرب : تأليف عبدالحميد العلوچي	١٠٠	ـ
٢ ـ الادباء العراقيون المعاصرون وانتاجهم : تأليف السيد سعدون الريس	٥٠	ـ

	الثمن	
	فلس	دينار
٣ ـ تطور الحركة الوطنية التونسية منذ الحماية حتى الاستقلال : تأليف الدكتور لؤي بحري (نفدت نسخه)	٥٠	ـ
٤ ـ العلم للجميع : اعداد كامل الدباغ	٥٠	ـ
خامسا ـ سلسلة ديوان الشعر العربي الحديث		
١ ـ اللهب المقفى ـ شعر حافظ جميل	٣٥٠	ـ
٢ ـ غفران ـ شعر محمد جميل شلش	٢٥٠	ـ
سادسا ـ سلسلة القصة والمسرحية		
١ ـ الظامئون : للاستاذ عبدالرزاق المطلبي	٢٥٠	ـ
٢ ـ عمان لن تموت : للاستاذ عبدالوهاب النعيمي	١٠٠	ـ
٣ ـ من مناهل الحياة : للاستاذ الياس قنصل	١٠٠	ـ
وستصدر قريبا :		
٤ ـ رماد الليل : للاستاذ عامر رشيد السامرائي	١٥٠	ـ

سلسلة القصة والمسرحية

صدر في هذه السلسلة

الظامئون .. .. .. تأليف عبدالرزاق المطلبي
عمان لن تموت .. .. .. تأليف عبدالوهاب النعيمي
من مناهل الحياة .. .. .. تأليف الياس قنصل

وسيصدر قريبا

رماد الليل .. .. تأليف عامر رشيد السامرائي

دار الجمهورية ـ بغداد
١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٧ م



دار الجمهورية ـ بغداد
١٣٨٧هـ/١٩٦٧م